

جلالة الملك العظيم فاروق الاول المحبوب

ليس بين الأمم الغربية العريقة في المجد ، أمة لها مثل حظ مصر . قد وهبها الله ملكا كالفاروق في عظمته ، وعلو همته . وسمو نفسه ، وغيرته الوطنية . ثم جملة فوق ذلك كله ، بأرفع ما في الملوك من جميل المناقب . ونبيل الصفات ، وبأسى ما أقترن بهمودهم في الأمم ، من معاني الديمقراطية الحقة !



وان مصر الخالدة ، التي ينتظم عقد تاريخها المجيد ، عشرات القرون ، من عهود الفراعنة الأماجد ، والأغارقة والرومان والعرب ، لتعتبر هذا العهد السعيد ، الذي يتقلد فيه عرشها مولانا الفاروق المحبوب . أزهر عهودها في التاريخ الانساني ، لأنه أعز ملك من ملوكها العظام ، استولى بأخلاقه العالية على مشاعر الشعب ، وغدا بالمفاخر التي يؤديها لصالح الأمة ، مهبط الرجاء لدى كل الطبقات ، وموئل الآمال في حياة رعاياه المخلصين !

عشرة أعوام مضت منذ تبوأ جلالته عرش آبائه وأجداده ، وهو ما أنفك منذ اليوم لمباشرة سلطته الدستورية ، حريصاً على أن يأخذ بناصر كل نهضة تخدم الشعب ، وتكفل له حقوقة ، وتضمن له العيشة الرغيدة ، وتدفعه إلى العلا والارتقاء !

فند تقلد جلالته الملك فاروق المعظم عرش البلاد ، وطرق المجد الواسع ، قد أنفتحت أمامها منذ البداية ، ومن يتأمل الشواهد العديدة التي رادفت عصره السعيد ، يجدها كلها تسجل للبلاد ، من دواعي التفاؤل والبشرى ما ينم على المستقبل الباهر الذي ينتظرها بفضل أعماله الحكيمة ، وسياسته الرشيدة ، بما يتكافئ مع ماضيها التليد وحاضرها المجيد !

إذ ليس بين شعوب الأرض أمة ، تعلقت بملكها العبقري ، الذي جمع إلى حكمة الرجولة ، حصافة الشباب الموهوب ، كما تعلقت مصر بالفاروق المحبوب - لانها أدركت بأحاسيسها ، أنه هو العاهل العظيم الذي أصطفاه لها المولى عز وجل ، ليعقد بيده الكريمة عز مجدها تحت لوائه المرفوع !

ولا عجب اذن ، أن تتيه مصر زهواً ونخاراً ، بملكها المعظم الذي وجدت فيه كل طبقاتها خير عماد لها ، ترنو اليه بأبصارها كلما أعوزها شأن من شؤون الحياة ، فتجد في أعماله التي يؤديها لها ، في كل مناسبة ، معجزة من المعجزات !

فهر الملك الوطنى الاول ، الذى ما برح يعمل على تغذية الروح الوطنية الصادقة فى النفوس ، ويدعو شعبه إلى انتكاتف والتضفير للجهاد فى سبيل أعلاء شأن الوطن ، والسعى لاستكمال استقلاله .

وهو الدستورى الاول ، الذى حرص منذ البداية ، على تثبيت قواعد الحياة النيابية ، فكفل المساواة ، والعدالة لأبناء الأمة ، ونشر الطمأنينة ، وأمن الحريات العامة فى كل ناحية !

وبهذين العاملين ، استطاعت مصر أن تقف فى مصاف الأمم العظمى ، فى محيط الديمقراطيات العالمية ، وتفاخر سواها بما بلغت فى هذا المجال ، من مظاهر الحضارة وال عمران !



ولقد شب الفاروق
المعظم ، مجبولا على حب
مصر . مشغوقا بأعلاء
شأنها . واسعادا بنيتها . . .
ولا فمن سمع من قبل أن
ملكاً هو نحر الملوك ،
وزينة الدنيا ، يحتوى
صدره النبيل ، نفسية
شعبية ، تفيض بالرحمة
والحنان ، كنفس الملك
فاروق ، فبيت مهتماً بأمر
الرعية فى أمته . وينطق
بحكمته الماثورة عندما فاجأ
مجلس الوزراء ، فى أثناء
انعقاده منذ زمن قليل
قائلاً :

- ولقد جئت لأطالب
بحق الفقير والمحروم ؟ ،
وإن هذا النطق
السمى ، ليصور للناس
شعور الملك ، وتفاعله مع
شعور الشعب ، ورغبته
فى مشاركتهم متاع
حياتهم . . . وهى كلمة

خالدة ، لم يسجلها التاريخ ، أو يروى لنا نظيرها ، فيما روى من مناقب الملوك ، وأقوالهم ، وأعمالهم . . . ولا غرو
فقد طبع جلاله على أن يقف جهوده على سعادة شعبه . وأن يجعل أمانته رهناً بأعزاده ، داعياً إلى بذل

الجهود في حقل الإصلاح الاجتماعى ، حتى ينال كل فرد في البلاد . نصيبه من الحياة الرغدة ، ويجد الطريق مهنياً للسير في الطريق المستقيم !

ولا ريب أن أعمال الفاروق المحبوب . وحياته العالية وجهوده الكريمة ، في كل ناحية من حياة مصر ، تؤلف في مجموعها قصيدة عامرة الآيات . عذبة المقاطيع . حلوة النغمات . فيها بحر علوى تهتز له الأرواح ، وتتناجى به القلوب . ومن أية ناحية نظرت إليها . تجدوها حافلة بالمحمد والفخر ، من جيل الى جيل !



ولقد أصبح من الحقائق الواضحة . أن أعمال جلالاته الجليلة ، قد برزت منذ العام الأول لحكمه المجيد ، في كل ناحية في الدولة . . . وهذه يده المدسوسة أخيرات ، ما أنفكت تفيض في سخاء وجود ، على أبناء الشعب بالحسنات والبركات . . . فالفاروق هو الملك الشفوق ، الذى يواسى شعبه . ويكافح للترفيه عن البائسين منه ، أروع كفاح . ويحمل عنهم في شجاعة ، ورضى وإيمان ، شتى المتاعب والهموم !

ولم ينس أحد في العالم ، كيف غادر جلالاته منذ ثلاثة أعوام عاصمة مملكته ، في يوم عيد السعيد ، وعلى جبينه المشرق سحابة من الحزن والأهتمام ، وسافر لتفقد

المرضى في قنا واسوان ، يوم اجتاحتهم الداء الويل ، وعدت عليهم عادات الوباء ، وكيف خفت زيارته الكريمة لهم ، ما نزل بهم ، وكيف مسح بيد الرفق والعطف أحزانهم ، وعمل على أسعافهم برعايته ، وكلها حنان في حنان !

ولعل مقاييس التقدير للولا . الفياض الذى يدخره شعب مصر للمليكة المحبوب ، قد جعلت الشعب بدوره يتفنن في الأعراب عن عواطفه نحو من يعمل إصلاحه ، ويسارع لتجديته في أشق الظروف ، لشعوره بان الملك يعرف حاجاته الرئيسية ، ويستجيب إليها ، ويحققها — ذلك لأن جلالاته لم يغفل قط عن مطالب كل طبقات الأمة ، لاعتقاده بان سنده العلية هي ساحة الآمان ، ومحط الرجال ، الى حد انه يناحى الشعب بانه « خادمهم الأمين » . وانه يود من صميم قلبه — لو استطاع — أن يصفح أفرادهم اجمعين ، لأنه على الدوام معهم بالروح والوجدان . في كل آن وحين !!

ولقد أصبح اسم الفاروق العذب يشعل عند ذكره عواطف المصريين ، يلهجون به . يهتفون بحياته ، في صدق وإخلاص متين . فهو الملك الصالح صاحب اليد البيضاء في تعمير بيوت الله . وهو الملك الرحيم الذى يأخذ بناصر البره وؤسسات الإحسان . وهو الملك الساهر على شؤون رعاياه ، الذى يتفقد المرضى منهم في بيوتهم . ويشن الحملات الموفقة على الاوبئة المجتاحة والعلل الفتاكة ، ويعمل ما وسعه الجهد على تحقيق كل ما من شأنه توفير اسباب الصحة والعافية لأبناء الشعب ، ويدعو الى الاكثار من المستشفيات ودور العلاج والوحدات الصحية !

وحين نلقت الى النواحي الحيوية في مجتمعنا المصري، وفي أنحاء وادى النيل بشطريه نجد آثار الفاروق المعظم واضحة، لا تحتاج الى بيان... فان غيرته على العلم، وجهه لنشره، تنجلي في محاربته للجمل، ودعوته الى محاربة الأمية في الريف والمدن، وفي تشجيعه للبعوث الثقافية، وفي احتفائه بطلابنا المتفوقين، وفي ما يشمل به من عطف وتشجيع جميعات البحث، في مختلف فروع المعرفة والفنون !

ولقد جعل الله بفضلله وتوفيقه كل خطوه بخطوها الفاروق الحكيم، في حقل الاصلاح الاجتماعى، مقرونة بالنجاح والسداد... وأن منهاجه الرفيع في هذا السبيل المنتج المثمر، لدستور كريم، يحدد الناس فيه مرآة لآمالهم، وصدى لمطالبهم، ويرون في معانيه ومبادئه، صدى ما يحسون، وما يشعرون، فيمتدون بضوئها في الظلمات، كلما بعد بهم العهد، أو اتصل الزمن - ولا شك أن هذا المنهج قد التقت فيه حكمة الفاروق بلبوغ فكره، لأن هدفه المصلحة العامة : التي تطلب لمصر العزة والسيادة، وتفشد للشعب الأمن والسعادة، حتى يرتع الجميع في ظل عرشه المقدس بالمساواة والعدالة الاجتماعية !

ولا تسل عما يحبو به جلالته الفلاحين، وأهل الزراعة، والعمال، ورجال الصناعات من عونه وتشجيعه، وعمله في سبيل رفع مستوى المعيشة لهم، بقلب عامر بالايان، وبقوة لا تكمل من العمل، ولا تمل، حتى غدا جلالته بحق العامل الأول، و« نصير الفلاح، ومعقد الرجاء، وحبيب القلوب الذى لا يتوانى لحظة عن إداة واجبه نحو وطنه وشعبه على اكل وجه، ودون أى تفريط في حجم خردلة !

وهكذا قل في كل المرافق العمرانية في البلاد، إذ اختصا جلالته برعايته السامية، الى حد شعر معه الجميع بمجده الرائع في أستكمال مجدها، وصدق البأس في الدفاع عنها، وشدة الايمان في ابلاغها الذروة والكمال تعميا لحخير العباد !

أما سياسة الفاروق الرشيدة، فتجلى في دأبه المتواصل للذود عن حقوق مصر، وجهاده الدائم لتبويتها المكانة الجديرة بها في عقد الأمم العظمى، فان شعار جلالته، هى أن يعمل لأن تكون مصر، كعبة الشرق العربى، ولهذا لم يدخر جلالته وسعاً، في دعوة أبنائها للوحدة، وضم الصفوف، وطرح الانقسامات والعمل لمجدها، كما دعا امم العرب إلى الإتحاد، وتكوين جامعتهم .

ولا شك أن مصر بمعالمها الجغرافية، إطار سياسى للوطن العالمى، الذى ظل مدى تعاقب الأزمان كافلا لجميع البشر من أرجاء الدنيا حسن الضيافة وكرم الوفادة، مع إحترام معتقداتهم المختلفة .

وهذه المبادئ السامية، مبادئ التسامح، والتعاطف الانسانى خليفة بأن تجعل كل فريق في مصر، ينصهر في روح الوطن القومى، روح مصر الخالدة التي يتقد قلب الفاروق غيرة على النهوض بها، والسير قدماً في مضمار العلا والفلاح . !

ومما يذكر لجلالته بالحد، أنه لم يفته أن يشمل بعطفه السابغ، كل أمة من أمم العرب حتى اعتبرته كلها ملك العرب أجمعين . !

وهذه أفضاله المذكورة ، ومواقفه المشهورة في أبان محنة لبنان التي ضمد جراحها بمواساته الكريمة ، ساعة أمتدت يد الظلم والاستبداد فعبثت باستقلالها . وهذه سوريا المجاهدة تذكر لجلالته عطفه عليها ، ومؤازرته لحقها . وهذه فلسطين الشهيدة يلهم لسانها بما أفاضه عليها من بر ، ورعاية حين احتضن زعيمها الأول ، المجاهد الحاج ، أمين الحسيني ، مفتيها الأكبر حين نزل في حماه وكيف نصرها في بلواها !

وآية ذلك إن جلالته لا يترك فرصة من غيراته تهازها ، لتحقيق التعاون والتضامن بين ملوك العرب وشعوبهم ، للتكاتف في حل مشاكلهم لايمان جلالته ، بأن في الاتحاد قوة ، تجعل هذه الأمم المجيدة ، تستعصى على الغاصبين . وتستخلص حقوقها من برائن المستعمرين !

إن كل هذه الآيات البينات ، لمفاخر مشرقة في ذلك السجل الخالد من سلسلة أعمال الفاروق العظيم . . . وأنها لسطور مجد تزهى على الزمن ، وتطاول الأجيال ، بل هي حلقة ذهبية إتصلت بها أجداد مصر ، وأصبحت مظهراً لنبض الحياة فيها ، ورمزاً للقوة المدخرة فيها ، لتزداد بها رفعة وإعتزازاً ، في عهد الفاروق السعيد الذي تسوده الحريات ، وتجلوه العزة القومية . ! !

• • •

فيا الله عصرك الزاهر يامولاي ، وأيد عرشك المفدى ، ووفقك في ملكك . وجعل عز الشرق على يدك ، وآية النصر للعروبة بجهدك . !

إن عصرك يامولاي ، هو العصر الذهبي في تاريخ مصر . . . يرتل فيه الناس لإسمك المحبوب لحن الخلود ، ويتنمون فيه بأفضالك على شعبك ، ويتهلون لله أن يديمك ، ويطيل عمرك وينصرك على الدوام . !

قدم للشعب على مر الزمن ياملك القلوب . ! !

وعش يافاروق ، يارجاه النيل السعيد ، وتاج الملوك . ! !



عهد المغفور له الملك فؤاد الاول

يعتبر عهد المغفور له الملك العظيم فؤاد الاول ، بما حفل به من الاعمال الجليلة ، وما تم فيه من المآثر عهد النهضة الحديثة في مصر المتطلعة إلى الرفعة والكمال - ويكفي غزراً أن جلالاته - طيب الله ثراه - وقبل أن يتولى مقاليد السلطان ، كان مأمهاً بما تدخره له العناية الآلهية من المستقبل المجيد لبلاده ، حين نطق وهو أمير ، بهذه

الآية الجديرة بأن تذهب مذهب الحكم والامثال حيث قال :



الممدر له جلالة الملك فؤاد الاول

• إن أجدادنا القديمة ، وتقاليدها المقدسة ، تعيننا على المضى بوطننا المحبوب ، المجدد الشباب إلى الكمال الانساني ، الذي ما انفك أمتية القرون ، وسط تنازع الشعوب ورائد الفلاسفة في كل عصر . من عهد أرسطو الى تولستوى فهو المنارة المتألقة في أفق المطمح الاسمي للعوالم !!

فلما أقيمت إلى يد جلالاته مقاليد السلطان الأعلى في البلاد ، وجه كل جهوده الفائقة إلى إبلاغ وطنه المجدد الشباب تلك المنزلة التي ظل يتمناها . ويحلم بها . وترنم لسانه بآياتها ، لتصل إلى الكمال المنشود الذي تأقت إليه نفسه . وأدركتها في عهده السعيد ، وعهد شبابه المجيد !

كان جلالاته - رحمه الله - محباً بفطرته للعلم ، ونصيراً بطبعه لكل نهضة مباركة في البلاد . . . ومن ينظر بامعان في مراحل نشأة جلالاته الاولى ، يجد أثر جلالاته في بث هذه الروح العميمة الخيرات في بلاده ، واضحاً جلياً . إذ رصد قواه لخدمة النهضة العلمية والادبية في مصر . بعد اعتزاله كل المناصب التي شغلها قبل توليه عرش البلاد ، فأبدى في هذه الناحية همه عالية ، وعلماً نادراً ، وغيره عظيمة على تقدم البلاد وترقيتها في النهوض بشبابها الناشئ . من الناحيتين الثقافية والتعليمية !

فضله في إنشاء الجامعة

ففي سنة ١٩٠٦ . قامت في مصر حركة ميمونة البركات هدفها الرغبة في الاستزادة من التعليم ، ونشر نوره في أرجاء البلاد ، حتى يعم جميع طبقات الشعب . فضلاً عن احتدام التعطش إلى التعليم العالي ، والميل إلى خلق الروح الجامعية ، التي تربي في المتنورين من شبابنا حرية التفكير . وسداد الرأي . تحمل لواء هذه الحركة المثمرة سمو الأمير . أحمد فؤاد ، فكان العمود الفقري في إنشاء الجامعة المصرية . . . وكان الباعث لهذه النهضة ، ومحبيها ومغذيها ، إذ شرف الجامعة ، برأسه الكريم ، ولعل الكلمة الخالدة ، التي تتم على نزوعه بالغريزة إلى دوام

الاشتغال بمصلحة الوطن . تلك التي قالها في ذلك الحين : « غير مهم أن يكون المرء أميراً . إنما المهم أن يكون المرء نافعا ، !

ولقد سارت الجامعة بخطى واسعة إلى التقدم والنجاح بفضل رعايته ، إذ سهر على تقدمها ، وشجع كل الحركات التي ترمي إلى إيجاد جيل جديد في البلاد يعاون على رقيها العمراني في ميدان الحضارة .

ولم تقف جهود هذه العبقريّة عند تلك الغاية . فإن لها ثماراً أخرى كثيرة ، دانت قطوفها للواردين ، وآلاف المستفيدين . إذ في سنة ١٩١٧ ، التفت سموه إلى « الجمعية الجغرافية » ، التي كان قد أسسها والده العظيم الخديوي اسماعيل في ١٨٧٥ . لتعزيز الاستكشافات في أفريقيا وما جاورها ، فاستحدث فيها المتحف الاتنوغرافي ، ومد بحوثها من الناحية الجغرافية . بحيث تتناول الناحيتين التاريخية واللغوية الخاصة بمصر ، وبذلك استردت مكانتها بعد أن كان الضعف قد اصطلح عليها ، وزادت نتائج أعمالها على ما كان يرجوه مؤسسها العظيم .

معهد الاحياء المائية

ويعود الفضل في انشاء معهد الاحياء المائية إلى جلالته بالذات ، فقد وجد أن بلاده ممتدة الشواطئ على بحرين عظيمين ، ومع ذلك فهي قليلة الانتفاع بخيراتها ، وجل تعويلها فيما تحصل عليه من الاسماك هو مما يأتيها من النيل أو من البحيرات ، على كثرة خيرات البحرين الآخرين ، وذلك لجهل الناس بحياة الاحياء المائية ، مع أن الامر الراقية الاخرى قد استحدثت في هذا السيل علوماً كثيرة انتفعت بها

ولذلك عمل على انشاء هذا المعهد في سنة ١٩١٧ بعد جهود جبارة ، وذلك لعدم ادراك الاكثرين لفائدته ، أما الان ففوائده يذكرها الجميع . فيذكرون معها الخدمات الجزيلة النفع التي تمت بانشائه .

جمعية الاقتصاد والتشريع

كذلك يعود إليه فضل التفكير في إنشاء جمعية « الاقتصاد والانشاء والتشريع » ، التي انتظم في عقد واحد ، صفوة رجال العلم والقانون لدراسة الامور الهامة التي تتصل بالحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد ، وترسم لها الخطط التي تسير على نهجها في تقدمها إلى الفلاح .

وكل هذه الاعمال التي جاءت نتائجها باهرة ، حتى أصبح لها أعظم الآثار في كل مرافق الحياة العمرانية في مصر ، قد تمت على يديه وهو أمير . أو وهو في مستهل جلوسه على العرش .

جلالة الملك فؤاد الاول

وقد تولى الامير « أحمد فؤاد » - في أواخر سنة ١٩١٧ . عرش مصر خلفاً للمغفور له السلطان حسين كامل وكانت الحرب العالمية الاولى ، في نهاية معاركها ، إذ نشبت المعركة الفاصلة بين المتحاربين ، على أثر انسحاب روسيا من الميدان ، ووقف الحلفاء أمام المضائق ، لا يستطيعون اقتحامها ، وكانت الظروف في مصر من أدق ما يكون إذ الاحكام العرفية كانت مفروضة ، والرقابة على الصحف وعلى كل شيء . ببسطة ... فكان اضطلاع

جلالته بالمسؤولية الكبرى، في مثل هذه الأحوال العسيرة، يتم على الشجاعة النفسية التي طبع عليها، وكانت شخصيته القوية، يهانها، وشفيعها، فجنبت مصر كثيراً من الويلات، إلى أن حانت آونة المطالبة باستقلال البلاد وتحريرها بفضل ورعايته.



المعروف له حسين رشدي باشا

الاستهلال الموفق

وكان أول عمل بداه جلالته، واستفتح به عهده السعيد، أن أصدر نطقه السامي إلى رئيس وزرائه في ذلك الحين المرحوم حسين رشدي باشا، إذ دل بجلاء على رغبته الصادقة في التعاون الوثيق بين العرش والشعب للعمل على إنباض البلاد إذ قال: «نشهد الله وشعبنا» على رغبتنا الصادقة في أن يمضي دائماً في وقف قوانا وإخلاصنا على رفاهية وطننا وسعادة شعبنا المحبوب!

تجنيذ الكفايات لخدمة النهضة

وكان أول ما رأى بنظره الثاقب أن يحققه في هذا السبيل، أن أصدر أمره الكريم بالاستعانة بالمخلصين الأكفاء، في وضع ما يلزم من القوانين ومشروعات الإصلاح الإداري، والانعاش الزراعي والاقتصادي، والانهاض الصحي، وبذل الجهود لرفع مستوى المعيشة لطبقات الشعب الفقيرة، متوسلاً بذلك إلى رقي الأمة المادي، والأدبي — وأخذ يطوف بنفسه في الأقاليم ليطلع على الأحوال، ويوزر المنشآت التي أسست لصالح الشعب، ويتفقد شئون التعليم، وينفق من ماله الخاص على المبرات العامة، ما يضمن لها النماء والازدهار!



المعروف له سعد زغلول باشا

التحرر من الحماية والاستعمار!

وعندما وضعت الحرب أوزارها، إنشقت في سماء البلاد أنوار فجر جديد، إذ نهضت مصر تطالب انجلترا بالاستقلال والحريّة، وتقرير المصير، طبقاً لمبادئ ويلسون الأربعة عشر، التي نادى بها، في إنجليه، — كما كانوا يسمونها — وأسناء ذيع سراً، إذا ذكرنا أن أول من رأى بثاقب نظره أن فكرة المطالبة إلى استكمال حقوق مصر، تقتضي تكوين وفد يمثل البلاد، هو المرحوم حسين رشدي باشا، فأشار بذلك على المرحومين سعد زغلول باشا، وعلي شعراوي باشا، و عبد العزيز فهمي باشا، — أطل الله حياته — فتوجه هؤلاء الأقطاب الثلاثة تنفيذاً للخطة الموضوعّة بينهم وبين رئيس الحكومة في ذلك الوقت إلى السير ونجت،

المنسوب السامي البريطاني ، وطالبوه بإلغاء الحماية ، واستقلال البلاد . وكان هذا المسمى هو مبدأ الحركة الوطنية في مصر ، في عهدها الحديث . على أنه بعد مسألة التوكيلات عن الأمة ، وسفر الوفد الذي شكل للسعى في الخارج إلى تقرير مطالب مصر ، وقع الإنقسام ودب الخلاف بين أعضائه . وترتب على هذا انشطار الجبهة العاملة لحرية مصر إلى فريقين ، كما هو معروف . ونرى أن نتجاوز ذلك أن خمسة أعوام كاملة من حياة مصر تقضت في خلافات حزبية إلى أن صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وهو يقضى بإلغاء الحماية ، وإعطاء البلاد استقلالها ، والمناذرة بالسلطان فؤاد ، ملكاً عليها . وكان أول نطق سام صدر من جلالة حينذاك قوله : « هذه هي ثمرة المجهود الوطني الذي ما أنفكنا نتجعبه ونشد أزره ، وأنه ثمرة مباركة ، من ثمرات التعاون بين أبناء البلاد ، !! »

مصر الديمقراطية وعهدها الجديد

وبذلك أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة . إذ وضع لها دستور يماثل أعظم الدساتير في الأمم الديمقراطية . وأسست في الخارج المفوضيات والقنصليات ، لتبادل التمثيل السياسي بينها وبين أمم العالم . وأخذت حركة الإصلاح الداخلي تحتل في برامج كل الحكومات المكانة الرئيسية في سلسلة أعمالها .

غيرة جلالته على وحدة الأمة القومية

ومن الحوادث التي أذكرها أنه لما تشكلت اللجنة التي تولت وضع الأسس التي ينض عليها الدستور المصري ، - وكانت مؤلفة من أعظم الرجال ، برئاسة المرحوم حسين رشدي باشا . وكان ضمن أعضائها فريق يمثل الأقليات - أي الطوائف غير الإسلامية - فقرر قرارهم في مبدأ الأمر ، واتحدت كلمتهم ، على أن يضعوا في صلب الدستور ، نصاً صريحاً بالمحافظة على حقوقهم ، وكنت آنذاك أحد أفراد هذا الفريق . إلا أنني وإن كنت متفقاً مع الأقليات ، في اتخاذ ما يلزم من الاحتياطات لحفظ حقوقها ، رأيت بالتأمل ، والتفكير أن ذلك ليس من مصلحة البلاد ، إذ أن التضامن القومي يتنافى معه . ولذا طلبت إلى زملائي أن يوافقوا على هذا الرأي . ولكن جلالة الملك فؤاد ، رأى بثاقب فكره البعيد ، أن ذلك النص الذي يريدونه ليس مما يتفق مع الوحدة القومية التي تنشدها البلاد ، فتفضل واستدعاني للتشرف بمقابلته ، فلما مثلت بين يديه ، قال جلالة - موجهاً إلى نطقه الكريم - لما كان بيننا من صلات قديمة ، يرجع عهدها إلى ما قبل توليه عرش البلاد .

- « هل توافق يا قلبي باشا على أن تكون البلاد شيعاً ، مقسمة إلى جملة طوائف ، فتقيمون في مصر جملة حكومات داخل الحكومة ؟ »

ثم استطرد قائلاً :

- « إنني استدعيتك لأقول لك أنني غير راض عن هذا الأمر ، ولا يمكن أن أقبله بأي وجه من الوجوه . فأعمل جهد ما في استطاعتك لمعارضة هذه الفكرة ومناهضتها بكل الوسائل الممكنة ، حتى تهدم من أساسها ، حفظاً لوحدة الأمة القومية ، ! »

فأجبت جلالتة قائلاً :

— « من ناحيتي يا مولاي ، فأشارتكم أمر مطاع ... ولكن ماذا أفعل مع الآخرين ؟! »

فقال :

— « تدبر الأمر . وأنا معتقد أنك قادر على العمل وفوق رغبتى ... على شريطة أن لا يقحم أحد اسمي ، ولا يدري إنسان أنني الموحى إليك بذلك ، ! »

وأخذت أفكر في الأمر . وأتدبره . واعتمدت على الله ، إذ أخذت أمهد للأمر بالنشر في الصحف ، فأذنت عدة مقالات مهيورة بتوقيعي الصريح . ذكرت في سياقها أن حب الوطن . والحرص على وحدة أبنائه ، هي التي أوحى إلي بها . وذلك يدعو المصريين إلى التضامن ، ليكونوا جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد أديانهم كتلة واحدة ، لا تنقسم عراها ، بعيدة عن الانقسام ... وأخذت أعارض الفكرة المقترحة في لجنة الدستور ، لما تحمل بين أطوائها من عناصر التفرقة . ودعوت إلى أن يظل أبناء مصر جميعاً خاضعين لقانون واحد ، وسلطة واحدة ، حرصاً على وحدتها القومية !!



لجنة الدستور

الجنة التي تألفت من : علي ، مصر ونولت وضع الدستور . ويرى المراف واقفاً في آخر الصف الأول (إلى اليمين)
وحامه مارجره ابراهيم الجبالي ك . وحسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمي اشأ وغيرهم .

فبما نشرت هذه المقالات في الصحف ، ثارت نائرة الآخرين واشتد حنقهم عليّ ، وقاموا لما دعوت إليه وقعدوا . وأعتبروا هذه الدعوة خروجاً مني على ما أجمعوا عليه . فدبروا حملة ضدي في الصحف العربية والأجنبية وفي المنتديات العامة والخاصة ، وأخذوا يستفسرونني عن الدوافع التي حملتني على مخالفتهم وإبداء ذلك علانية لعلهم يفهمون أن هناك من أوحى إلي بها . فكنت أجيبهم بأن ما رأيته هو الصواب ، لأنه في صالح البلاد !!

وفعلاتم في اللجنة ، ما دعوت اليه ، وأعلنت عنه ، ولكن بعد مرور فترة من الزمن أتصل بعلم من كانوا يعارضونني ، أن جلالة الملك فؤاد ، هو الذي رغب في تحقيق هذا الأمر ، فادركوا مدى الخير فيه ، والحكمة منه فشكروني ، وحمدوا لي صبري على ما نالني من أذاهم ، وتجلدى على التجرىح والتنديد الذي أصابني منهم ، في سبيل فكرة رشيدة ، مثل هذه الفكرة الوطنية التي كفلت وحدة الأمة ، وتكتلها ، وتضامن أبنائها الصحيح ، تحت تاجها المقدس !!

جوده المباركة في الاصلاح الاجتماعى

ولقد توجهت عناية المغفور له الملك فؤاد العظيم ، منذ أن أعترفت الدول رسمياً باستقلال مصر ، إلى مسائل الاصلاح الاجتماعى . ولا شك أن عهده الزاهر ، يعتبر من هذه الناحية عهد التشديد والتجديد ، والانشاء والاحياء . متناولا هذا الاصلاح بلباقة بارعة ، حتى لا تصطدم بتقاليدنا التي نحرص عليها . فعرف هذا الربان المحنك كيف يؤمن سفينة البلاد في أثناء سيرها الشاق في بحار العمران . ييقظنه الدائمة من المخاطر ، لتصل إلى شاطئ الأمان !

تقويم الحياة المعاشية للاهلين

ويطول بنا المقام إذا حاولنا أن نحصر الاصلاحات أو نذكر المنشآت والمؤسسات التي تمت في عهده المجيد . ولكن يكفي من مجرد الاشارة إليها ، أن تتجلى للناس ما نفيته على البلاد من نعم وخيرات . . . لأنها في مجموعها ، تهدف إلى تقويم الحياة الاجتماعية في مصر ، وتحسين الاحوال المعاشية لاهلها ، لما لذلك من اتصال وثيق برفق البلاد ومدنيتهما ، ومكائنها العمرانية . . . فكانت أعمال جلالاته في الدأب على توفير مطالب الفلاحين والسعى لتحسين أحوال العمال ، وغيرهم من الطبقات الشعبية في الامة والبر بها ، مضرب الامثال !

النهضة الصحية والتوسع فيها

وليس في مصر من ينكر كيف خطت الصحة العامة في عهد جلالاته خطواتها الموفقة نحو الاصلاح ، وقد أمر بتحويل مصلحة الصحة في ذلك العهد إلى وكالة وزارة . ثم عمل على ارسال البعث الطبية وزيدت ميزانيتها زيادة عظيمة ، لتواجه هذه الحالة ، لتحقيق هذه الأغراض . وكل ذلك بفضل ارشاده الحكيم وتوجيهه العظيم .

إصلاح الاوقاف ودفع الشكايات منها

وعنى جلالاته عناية خاصة باصلاح الاوقاف ، ولا شك أن مشكلة الاوقاف ، كانت على الدوام مبعث الشكوى والتذمر ، لما كان يجرى فيها من المظالم وتبديد حقوق الناس .

فلما وجه جلالاته بعض عنايته لهذه الحالة التعسة ، أدت جموده إلى تحسينها بعض الأمر ، فتكاثرت في عهده الايرادات التي تدرها الاوقاف الاهلية المعهود بها إلى وزارة الاوقاف ، عما كانت عليه أضعافاً مضاعفة عن ذى قبل ، وتوفر من إيرادات الاوقاف الخيرية ، المال الكافى للانفاق على المؤسسات الصحية والعلمية ، وسواها من المرافق الانسانية !!

ومن النوادر التي أحفظها للتدليل على هذه المظالم، أنه حينما كان المرحوم إبراهيم باشا فنحى وزيراً للأوقاف، أتت إليه في الوزارة سيدة كانت لابسة ملابس رثة، ولا أبالغ إذا قلت أنها كانت تلبس فستاناً به أكثر من عشرين رقعة، وحافية القدمين، وقالت للوزير: «إننى في فقر شديد، اضطررتى إلى الاكتساء بهذه الاسمال البالية وأن أمشى حافية القدمين، وليس معى ما أقفأ به اليوم، مع أنه لى مبالغ جسيمة بوزارة الاوقاف حبسوها عنى وأوجدونى فى هذه الحالة، وقد حضرت ملتجئة إليك لتصرف لى ولو عشرة جنيهات أقفأ بها حتى يأتى الفرج، فطلب فى الحال العامل المختص وسأله عما اذا كان لهذه السيدة مال بوزارة الاوقاف؟ فأجاب: نعم لها أكثر من ١٢٠٠٠ جنيه! فقال له: وهل من تملك ١٢٠٠٠ جنيه يصح أن تكون بهذه الملابس البالية والأقدام الحافية، ولا يجد مانتقات به يوماً؟ فأجاب العامل عندما أردنا الصرف على الحساب استفتينا مفتى الوزارة فأفتى بعدم الجواز فاضطررنا لاتباع نصيحته كما هو الجارى فى مثل هذه المسائل! فغضب الوزير غضباً شديداً وأمر بصرف المبلغ بأكمله حالا وناهيك بما نالها من السرور الذى كاد يقتلها من الفرح، ثم استدعى رحمه الله المفتى وعنفه تعنيفاً شديداً وأمر أن تكون مثل هذه المسائل من اختصاص الوزير فقط ولا شأن للمفتى فيها...!

جلالته زعيم الإصلاح !

وفى كل ناحية من نواحي الحياة العمرانية، نجد آثار جلالة الملك فؤاد، متجلية، سواء فى تنظيم أحوال الرى الذى يعتبر بالنسبة للحياة الزراعية فى البلاد، مصدر نماؤها، أو فى العمل على التعمير، سواء فى تحسين طرق المواصلات، أو فى توسيع الموانى المصرية تمشياً مع زيادة التجارة مع الخارج، أو فى الشؤون الصناعية والاقتصادية والزراعية، والتعليمية، بمختلف فروعها — مما يحتاج الكشف عن مفآخره فى كل ناحية منها، الى صفحات وصفحات !

وبهذه المآثر يستحق أن يكون جلالة الملك فؤاد زعيم الفكرة الإصلاحية، ولذلك كان جلالته يهتم جد الاهتمام بالبحوث التى تسفر عن عقد المؤتمرات التى اجتمعت فى عهده بالبلاد، وأهمها مؤتمر الطب والجراحة، ومؤتمر البريد، ومؤتمر الجراد وغيرها مما ترتب عليه توسيع نطاق المباحث المفيدة، والارتفاع بها، فى ترقية البلاد

فضله البارز على جمعية الهلال الاحمر والاسعاف

ولجلالة الملك فؤاد، أفضال لا تزال أنوارها مشرقة على جمعية الهلال الاحمر المصرى، التى تأسست سنة ١٩١٢، بمناسبة الحرب الطرابلسية الايطالية برئاسة صاحب السمو الملكى الأمير الجليل محمد على، ولى العهد — كما سيأتى بالتفصيل — فان جلالته، فى عهده السعيد، والاها بالرعاية والمؤازرة حتى خطت خطوات عظيمة، أصبحت بفضلها تحتل المكان العالى فى الحياة المصرية، وشمل نفعها الامم على اختلافها فى الشرق والغرب، مما يدل على مقدار نموها وازدهارها...

وكان تشجيع جلالته لجمعية الاسعاف خير معوان لشد أزر القائمين بها، حتى جعلها من المؤسسات الضرورية التى لا غنى عنها للبلاد والعباد. فانتشرت بفضلها فروعها فى كل المديرىات والمراكز، وهى تقوم اليوم بأجل الخدمات. وأصبح لها بفضل تشجيعه أملاك كثيرة وموارد عظيمة، تكفل لها الحياة الدائمة، والتقدم المطرد.

وهكذا طبع الناس على حب المعاونة بوساطتها ، فصانت بخدماتها أرواح الكثيرين . وضمنت أسباب المعالجة لآلاف الجرحى من المصابين . . . ولا غرو ، فما أستحق أن يولد من عاش لنفسه فقط ، !! وكذلك عمل جلالة على إنشاء « جمعية السياحة » ، لأن مصر بموقعها الجغرافى العظيم ، وبآثارها الخالدة ، هى مقصد السائحين من كل بلاد المعمورة . . . ولما كانت السياحة فى الأمم المتحضرة ، لها مكان الصدارة فى اقتصادياتها ومصدر رئيسى من موارد الثروة القومية - فقد رأى جلالة الملك فؤاد أن ينشئ جمعية السياحة ، للدعاية لها فى الخارج ، ولتنظيم شئونها فى الداخل . وقد كان من آثارها أن عقد مؤتمر للسياحة فى مصر . كان خير اعلان عن مفاخرنا وآثارنا ، وجمال الطبيعة التى تتميز بها بلادنا . فضلا عما أصابته البلاد من خير عميم بما أنجزته من الأعمال التى ترمى إلى تنشيط السياحة .

تنشيطه للمرافق الاقتصادية

ولا يمكن أن تنسى مصر أفضال جلالاته ، ومآثره الجمة فى الناحيتين المالية والتجارية ، إذ استطاعت مصر فى مدى عشر سنوات من حكم الملك فؤاد أن تحظى بمكانة اقتصادية عظيمة ، حفظت لها مستوى يعتبر بالنسبة للآزمات التى طالما أجتاحت الأمم الأخرى ، فى الذروة . ولا غرو فى ذلك فان عنايته بتحقيق ألوان الإصلاح فى المصالح والمرافق العامة والادارات المختلفة هى التى كفلت للبلاد هذه الغايات .

رعايته للنهضات الفنية والأدبية

وبفضل شغف جلالاته بالتعليم ورعايته للبتعلمين نمت الحركات العلمية والنهضات الأدبية والفنية فى أنحاء البلاد فخطت الجامعة فى عهده السعيد ، خطوات واسعة ، حتى غدت تضارع أكبر جامعات أوروبا وأمريكا الكبرى وغدت تمنح النباه المتقدمين إليها ، أعلى الدرجات العلمية . وذلك علاوة على النهضة الشاملة التى عمت كل دور التعليم العام ، فى مختلف مراحلها وعلى الأخص عنايته بادخال الأنظمة الحديثة على الجامعة الأزهرية ، وبذلك تجدد شبابها ، وغدت منارة الفقه والعلوم الدينية ، فى العالم العربى كله ، يتهدى أهل العلم بنورها ، ويأتون بهديها . . . وهكذا بمثل هذه الهمة ، وبفضل تلك العبقريّة خطت مصر خطوات سريعة فى ميدان التقدم والحضارة والمدنية والعرفان !!

فضله على الآثار المصرية

وأما عن فضل جلالاته على الآثار المصرية ، فحدث ولا حرج . ثم أن رعايته السامية لمفاخرنا القديمة فى هذه الناحية ، حملت جلالاته على أن يرعى المتحف القبطى للآثار بعطفه الكريم . فأمر - رحمه الله - بضمه إلى الحكومة ، حتى غدا يضارع فى الأهمية دار الآثار العربية والمصرية القديمة ، لاعتقاده بأنها جميعاً تكون المظاهر الصحيحة لعظمتنا وأجدادنا تاريخنا ، ومفاخر أسلافنا القدماء .

ويجدر بى فى هذا المقام ، أن أنوه بأن هذه الإيالة السامية من جلالاته بالعناية بالمتحف القبطى ، قد جعلت له من الأهمية ، ما لم يكن يخطر على بال . إلى حد أن المشغوفين بالآثار القديمة ، كان لا يفوتهم زيارته

والاطلاع على ما به من بدائع الفن ، حتى تمدك ان جلالاته اذا كان من يزور المتحف القبطى من الملوك ، يستصوب أن يستصحبه . ويشرف المتحف معه بزيارته . وانى لا أزال أذكر — وقد كنت عضواً فى مجلس إدارة المتحف — زيارة جلالاته السامية ، مستصحباً معه جلالة الملك ، فيكتور عمانوئيل ، ملك إيطاليا السابق ، يوم زار مصر فى سنة ١٩٣٣ . ونزل ضيفاً على جلالاته — أقول لا أزال أذكر كيف كان جلالاته يتحدث عن كل ما يحويه المتحف حديث العالم الخبير ، والباحث المدقق ، الذى يحيط بتاريخ كل قطعة أثرية فى المتحف مهما بعد بها العهد . وكان من أعظم الأعمال التى تمت فى عصره الزاهر ، إنشاء بنك التسليف الزراعى المصرى — وقد كنت أول من نادى بضرورة إنشائه أكثر من ثلاثين عاماً . فأدى وجوده لأهالى البلاد خدمات لا تحصى ، بإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من سماد ، وبذور ، لاسمياً عند ما تغلق سائر البنوك أبوابها فى وجوه الزراع عند اشتداد الأزمات .



جلالة الملك عمانوئيل ملك إيطاليا الأسبق والمفتون له الملك فؤاد عند زيارتهما المتحف القبطى سنة ١٩٣٣ ويرى المرافق (فى يمين باشا) فى شرف استقبالهما

تلك آثارنا تدل علينا !

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نعدد كل الاصلاحات التى تمت فى خلال تولية جلالاته عرش مصر . ولكن جملة القول أن ذكر ما يحازر بأنه قد تناول مهمة الاضطلاع بهذه الاصلاحات فى لباقة ومهارة ، دون أن يحدث أى تصادم بين طبقات الشعب الاجتماعية المختلفة ، من محافظة ومجددة ... إذ لأم بين ظروفها جميعاً . وكان من حين إلى حين يستدعى عظماء الأمة . ومفكرها لاستطلاع آرائهم ، وتعرف افكارهم . رغبة منه فى إنشاء دعامة للتعاون بين الأمة ، والحكومة .



المفتون له عبد الحاقى ثروت باشا

التحالف بين مصر وبريطانيا

ولقد كانت من نتائج حصول البلاد على تصريح ٢٨ فبراير ، أن اتجهت الجهود ، لتنظيم علاقات مصر بالبحلرا على أساس عقد معاهدة صداقة . ومخالفة بينهما . ولا يزال يذكر الناس مدى ما بذل فى هذه الناحية عبثاً ... إذ كانت كل مباحثة فى هذا الشأن . سواء أكانت على يد المرحوم سعد زغلول باشا ، أو عدلى باشا ، أو ثروت باشا ،

أو محمد محمود باشا - رحمهم الله أجمعين - سرعان ما تنهت بالتوقف والقطع . وذلك بسبب اختلاف الأحزاب المصرية . وعدم اتحادها ، واشتداد التنارع وتباين الآراء بينها - إلى أن وقف جلالة الملك فؤاد الأول - طيب الله ثراه - قبيل أن تستأثر به رحمة الله . وقفته التاريخية الخالدة . التي أدت إلى اتحاد الأحزاب كلها . وتكوين الجبهة الوطنية التي تم على يديها عقد المعاهدة المصرية الإنجليزية في سنة ١٩٣٦ .



المتوفى له عدلى يكن باشا

مصر في عهدها الجديد

وهكذا امتاز عهد الملك فؤاد بتقرير الأنظمة الدستورية . وتدعيم الحكم النيابي ، الذي جعل المصريين متساويين أمام القانون ، وكفّل لهم حرياتهم الشخصية . فضلاً عما تم في آخريات أيامه من عقد المعاهدة التي طالما بذلت الجهود بغير طائل لأبرامها ، تظليماً لعلاقات مصر بخليفتها إنجلترا . واستكمالاً للرحلة الثانية من مراحل استقلال مصر في عهدها الجديد !

فضله في تعيين البطريك الأسبق

ومن مواقف جلالته التي لا أنساها ، فضله الملحوظ في تعيينه المتديح ، الأنبا يوانس بطريكاً للأقباط . إذ حدث في ذلك الوقت أن توفي مطران الحبشة السابق الأنبا متؤوس ولحقه إلى الدار الباقية قداسة البطريك الأنبا كيرلس . فلما رأى جلالته بفطنته السديدة ، أن شقة الخلاف قد أخذت تتسع فيمن يعين بطريكاً ، وخشى أن تنهز بعض الدول الفرصة ، وخلق كرسى الحبشة من مطرانها القبطى المصرى ، فتعمل على إحلال مطران غيره من أبنائها مكانه . ولما كانت مصر مرتبطة بالحبشة بعلاقات قديمة سياسية ودينية . وكان اختيار مطران لها لا يتم إلا إذا رسمه ، بطريك الأقباط . فقد استدعاه جلالته ، وشرح الأمر قائلاً :



المتديح الأنبا متؤوس

—: «إني أرى أن تعجلوا في اختيار بطريك ليقتنى رسم مطران الحبشة بأسرع ما يمكن من الزمن . حتى يقفل باب الدسائس نهائياً . لأن المطران القبطى فضلاً عن كونه تابعاً للكنيسة القبطية التي هي جزء من شعبي - فانه في آن واحد يعد سفيراً مصرياً في المسائل التي بيننا وبين الحبشة . فلماذا أرجو أن تسعى في تنصيب بطريك حالاً لأجل أن يرسم مطراناً للحبشة . ونقفل هذا الباب نهائياً . ولا سيما أن هذا الأمر يهمني خاصة من جميع الوجوه !

وأجبت جلالاته بأنه توجد خلافات كثيرة بين الأقباط عمن يرشونه بطريركا ، والأمر به من الصعوبات غير قليل . لأن التقاليد المتبعة أن يختار البطريرك من بين رهبان الأديرة ، دون المطارنة .

وأجابني جلالاته : على كل حال أرى أن الأنبا يوانس . قائمقام البطريرك . جدير بهذا المركز ، فهو رجل عظيم ، واسع المعرفة .. وهذه ميزة قد لا تتوافر لأحد من الرهبان - إذ أنهم منقطعون عن العلم . وليس لهم كبير دراية بالأحوال المدنية ولا تجارب ، تمكفل لهم النهوض بأعباء هذا المنصب الرفيع .

فقلت : يامولاي إن التقاليد تقضى باختياره من الرهبان دون المطارنة !

فقال جلالاته : دعك من الماضي وتقاليدده ، وأعمل كل جهدك في تذليل الصعوبات كلها . لكي يتم اختياره لهذا المنصب . وأنا



المتابع الأنبا يوانس بطريرك الأقباط الأسبق

أساعدكم على تحقيق ذلك .

فقابلت عطف جلالاته السامي بالشكر والدعاء ...



(المؤلف) قلبي مهيئ لانا

ولما بدأت المساعي بين فريقين المختلفين وبسطت لهم الأسباب التي تدعوهم إلى التفاهم ونبت الاختلافات . ولا سيما أن هناك رغبة سامية بذلك . ثم لنا تحقيق هذه الأمنية الكريمة باختيار الأنبا يوانس بطريركا . وبعد انتهاء المراسيم الدينية أوكنا إليه اختيار مطران الحبشة . فاختار المطران الحالى .

وقد تألف وفد كبير على رأسه غبطة البطريرك لشكر جلالاته على حكمته السامية . وتفكيره العظيم وفضله العميم في وضع حد للشقاق والتنازع . وكنت أنا خطيب هذا الوفد ...

الخلاصة

وهكذا كانت حياة جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول - أسكنه الله فسيح جناته - عامرة بجلال الأعمال إذ عاش لأمته أكثر مما عاش لنفسه : وفي كل ناحية من تاريخه العظيم تجلى سمو الفكرة ، وعبقريته العقل ، ودقة الشعور . ويتدفق الخير والبركة من كل ناحية من حياته السامية ، وجهاده المشكور الذى سوف يبقى إلى الأبد يبعث في أبناء مصر روح الغرَم لرفع شأنها ، وإحياء أمجادها الوطنية . ومفاخرها القومية !!

علاقة مصر بالحبشية ومشكلة دير السلطان

نهضت علاقة مصر بالحبشة ، على أساس الروابط الوثيقة التي كانت وما زالت تربط الكنيستين في مصر والحبشة ، برئاسة دينية واحدة : هي رئاسة البطريرك القبطي الأرثوذكسي . فهو وحده الذى يعين من قبله الأساقفة والمطارنة للمملكة الحبشية . والأحباش يخلصون له ، ويحترمون به غاية الاحترام ، الذى يبلغ مراتب العبادة ويفخرون بالترنم باسمه . يرددونه فى صلاتاتهم . ويتبركون به فى دعواتهم ولا يمكن أن يتوج ملك من ملوكهم إلا بيده الكريمة أو من ينيبه عنه من الآباء الروحيين .

خلاف قديم على دير السلطان

ومع كل هذه الاواصر المتينة . فقد نشأ عن ذلك خلاف قديم . يرجع عهده إلى سنوات بعيدة . خاصاً بدير السلطان . المعروف فى القدس . والملوك الأقباط . فان الأحباش يدعون أنه ملك لهم . وأن ليس الأقباط حق فيه وظل هذا الخلاف ناشأ . حاداً ، حتى أن المغفور له الامبراطور منليك . كان قد أرسل إلى كتاباً ، كما أرسل كتاباً آخر إلى المرحوم بطرس غالى باشا . يدعو فيهما للتوسط فى حل هذه المشكلة ...

المساعى لفض النزاع

وأخذنا نمد لفض النزاع القائم بين الكنيستين ولكن الوسائل التى اتخذت لم تقض إلى التوفيق المنشود .



إذ ظلت المنافسة قائمة على أشدها بين الأحباش الموجودين بالقدس . وبين الأقباط الموجودين هناك . على أنى أخذت أجرى تحقيقات لمعرفة أحقية كل فريق من الفريقين بملكية الدير . فاستبان لى بمستندات دقيقة . لا تقبل نقضاً . أن الدير هو ملك الأقباط حقاً ؛ ولكن هذا لم يقنع الأحباش . ولم يفض الاشكال القائم أو ينهى النزاع المحتدم بينهما . .

وأخيراً عند ما زار الرأس تفرى - الامبراطور هيلاسلاسى فلما بعد - مصر . فى طريقه لزيارة أوروبا - وكان وقتها ولياً للعهد - عقدنا اجتماعاً عظيماً حضره سموه . وطائفة من كهراء الأقباط . وتناقشنا فى هذا الامر . ولكن الاجتماع لم يسفر عن نتيجة مرضية . . .

مقابلتى لولى العهد فى باريس

فلما وصل سموه لباريس ، كنت قد سبقته إليها فأستدعانى لمقابلته وأكرم وفادى حين تشرفت بمقابلته غاية الأكرام . وتحادث إلى فى هذه المسألة شاكراً مما تنطوى عليه من ألوان الصعوبات . فأبدت لسموه استعدادى للعودة إلى مصر خصيصاً فى وقت عودته إليها فى طريقه إلى بلاده .

ويجب أن نشير إلى أن رحلته إلى أوربا أفادته إفادة عظيمة في اقتباس المدينة والحضارة الأوروبية لادخالها في الحبشة كما يجب أن نشير إلى أن غفرى باشا وزير مصر المقوض في فرنسا أقام لسموه حفلة فاخرة كنت أحد حضورها تجلت فيها مظاهر المودة وروح المحبة التي تربط مصر بالحبشة وتم على قوة العلاقات وتوثقها بينهما ..

كيف حلت المشكلة ؟

وعاد سموه إلى مصر ورجعت أنا من سياحتي . فلما وصلت إلى الاسكندرية تلقيت برقية تتضمن انقطاع المفاوضات بين الأقباط وسمو ولي العهد ، لتعذر الوصول إلى حل . كما تلقيت برقيات أخرى يرجون أصحابها . بسرعة قدومي للقاهرة . لعل مسعاى يقترن بالنجاح . فبعثت بريقة إلى سموه . وكان قد أزمع السفر لبلاده . أسأله فيها عما إذا كان حضورى مجدياً . فتلقيت الرد بالإنجاب . وشخصت في الحال إلى العاصمة . وتشرفت بمقابلته . فرأيت غضبان آسفاً . فتألمت لهذا الأمر . ونظرت في الخلاف نظرة بعيدة . وسعيت لدى أخواني بمختلف المساعي لافئاعهم باسترضاء الحبشة شقيقة مصر لأن في ذلك مصلحة البلاد . فأقرونى على هذا الرأي . وعرضت هذا الحل : وهو بما أن دير السلطان يشمل كنيستين صغيرتين وفضاء في حيز مشتمل على أربعين غرفة فيصير تنفيذ الآتى : —

أولاً : أن يعترف الأقباط بأن الدير هو ملك الأقباط بموجب فرامانات سلطانية . فلا يترتب على سكانهم فيه أى حق للمليك !

ثانياً : تقسيم منافع الدير إلى قسمين يشمل كل منهما كنيسة وعشرين غرفة فيكون أحدهما للأقباط والآخر للأقباش

ثالثاً : الممر الفاصل بين هذين القسمين يظل مشاعاً للطرفين

وكان هذا الاقتراح موجباً لرضى الجميع . وقبله ولي العهد قبولاً حسناً حتى أنه أبدى رغبته في أن يكتب ويوقع ليأخذه معه قبل سفره ، وكدنا نتمه لولا أن بعض الأشخاص برزوا من بين الأقباط محتجين معارضين زاعمين أن هذا مناقض لمصلحة الأقباط فسافر ولي العهد بعد أن وعده باتمام الأمر وإرساله إليه فيما بعد .

غبطة البطريرك يوافق على الحل

ولما كانت الكلمة الأخيرة في مثل هذه الأمور هي لغبطة السيد البطريرك — وكان وقتها غبطة المتنيح الانبا كيرلس — فقد تشرفت بمقابلته . وعرضت عليه المسألة . فوافقني على الحل الذى توصلت إليه فيها . فضا للأشكال . ولم يسعه إلا الموافقة التامة عليه . وذلك بأن وقع على الاتفاق بتوقيعه الكريم . وأرسله لسمو ولي العهد في الحبشة عن طريق نياقة مطران الحبشة وقتها الانبا متاؤوس ، رحمه الله — وكان في ذلك حل لمشكلة طال زمن الخلاف فيها واستعصت على الحل والتفريح ...

الأمير أصفواصن وتكريمه في مصر

وبهذه المناسبة أذكر أنه لما توفيت الامبراطورة . من ، تولى العرش بعدها (الامبراطور هيلاسلاسى) الذى كان ولياً للعهد باسم (الرأس تفرى) وبعد مضي فترة من الزمن حضر ولي عهده وبجمله الاكبر إلى مصر . (الامير أصفواصن) وأمضى بين ربوعها فترة من الوقت ، فانهزت هذه الفرصة . ودعوته إلى ولية فاخرة أفتها بفندق « سميراميس » العظيم . وقد جمعت هذه الحفلة أعظم المصريين من الامراء والوزراء والادباء . وأهل الرأي في البلاد . وكان بلبل هذه الحفلة المطربة المعروفة « أم كلثوم » ، التي أطربت الاسماع بشدوها العذب ونغماتها المشجية ، وصوتها الكروانى الجميل ... وكانت هذه الحفلة عربوناً جديداً على صدق العلاقات بين الامتين . وكان من شهودها غبطة البطريرك السابق رحمه الله

عهد المغفور له السلطان حسين كامل

نشأ المغفور له السلطان حسين كامل نشأة إدارية وحكومية كاملة من كل النواحي .. فقد تلقى العلم في مدرسة المنبيل التي أنشأها والده المغفور له الخديوي اسماعيل . ثم ادخل المدرسة التجهيزية التي أعدت للعظماء وأبناء الدوائ وأخذ من علومها بقسط وافر . ثم سافر إلى باريس . فكان في إحدى جامعاتها زميلاً لولي عهد الامبراطور نابليون الثالث ، وبقي فيها عامين ، دعى بعدهما لحضور حفلة افتتاح قناة السويس .. فلما أراد أن يرجع لاستئناف دراسته نشبت الحرب السبعينية ، فرؤى أن يبقى بمصر ، مزوداً بما كسبه من ألوان المعرفة . فرق ما حصله من دراسة الأحوال العامة في كثير من البلاد التي طاف بها ، وحل فيها في الشرق والغرب !



المغفور له السلطان حسين كامل

ولقد كان أول عمل حكومي باشره . هو منصب حاكم الأقاليم . حيث كان يشرف بنفسه من مقر عمله بديوان المديرية في مدينة طنطا . على أعمال الحكم في الأقاليم . وعلى أحوال الفلاحين فيها لتعرف حاجاتهم والعمل على تحقيق مطالبهم ..

إثارة في الأقاليم

وكانت الفترة التي أمضاها سموه في الأقاليم بمثابة أعداد لما هو مهيئ لأن يزاوله من الأعمال الكبيرة في المستقبل وقد كانت عنايته بدراسة أحوال جماهير الشعب وتوجيههم إلى كل ما يعود منه الخير عليهم . كقيلة بأن تحمله على استخدام نفوذه العظيم في الضرب بيد من حديد . على بعض من لا يبالون بمصالح الناس . لاسيما الفلاحين . الذين كانوا يجدون منه رعاية كبيرة . أهله لأن يسموه بأجماع الآراء . أبو الفلاح ، !

المناصب التي تقلدها

واختير بعدئذ وزيراً (للبعارف) و (للأوقاف) — وكان سنه لم يتعد العشرين — فتولاهما معاً — وظهرت آثار إصلاحاته فيهما ، بأجلى مظهر ، حين أنشأ مدرسة (دار العلوم) وعدة مدارس للبنات . كانت الدعامة الأولى في التعليم النسوي . كما أصلح كثير آمن الأنظمة بما كانت تشكو منه نظارة الأوقاف وعمل على أنصاف طوائف عديدة من المستحقين . وأولى عناية خاصة للمرافق الخيرية منها التي يصيب نفعها طبقات الفقراء !

من ذكرياتي الخاصة

فن ذكرياتي عن سموه رحمه الله . في أيام توليه لوزارة المعارف أن أقيم امتحان في مدرسة الأقباط الكبرى وكنت من تلاميذها . وكانت حفلات الامتحان تقام في ذلك الوقت . وسط احتفالات عظيمة يشرفها كبار رجال الدولة والأمراء . وقناصل الدول الأجنبية — فساعدني الحظ . وكنت ثاني الناجحين ، من بين خمسمائة تلميذ . وقد وزعت الجوائز بيد سموه على المتفوقين ، فكان لذلك رنة فرح وسرور ... وقد كانت المكافأة التي نلتها بمجموعة من الكتب الثمينة . مهرها سموه بإضاءته الكريم !

بعض أعمـاله

ومن النظارات التي توليها سمو الأمير حسين كامل الداخلية والأشغال العمومية وكان له فضل كبير في إنقاذ البلاد من الفيضان الذي كاد يهدد مصر بالولايات في سنة ١٨٧٤ . كما أنشأ ترعة الإسماعيلية التي أوصلت المياه العذبة إلى الإسماعيلية والسويس ، وانتقل إلى نظارة الجهادية ، فضم إليها البحرية ، وما يذكر أنه في ذلك العهد توسعت حدود مصر ، وخففت أعلامها على خط الاستواء ، وهرر وبلاد الصومال !

في نظارة المالية

ثم تولى نظارة المالية خلفاً لإسماعيل صديق باشا . المفتش ، فصار فيها سيرته في كل أعماله ، بالشدة المقرونة بالنظام . إلى حد أن أمر مرة بسجن المرحوم (نحلة بك البارقي) الذي كان موضع ثقة إسماعيل باشا صديق . ولم ينقذه إلا شفاعته الأنبا ديمتريوس بطريرك الأقباط الذي كانت له حظوة عظيمة لدى سمو الخديوي إسماعيل . هذه هي المنشآت الإدارية والحكومية للأمير حسين كامل - ومنها يرى المطالع أنه قد ألم بدقائق الأعمال في الدولة . ولم يترك منها ناحية لم يعرفها . وقد ظل سموه كذلك ، إلى أن قصت الظروف بأن يصحب والده العظيم الخديوي إسماعيل في سفره إلى الخارج بعد اعتزاله العرش ، وتولى الخديوي توفيق لإتمام الحكم ، فلما عاد بعد إخماد الفتنة العربية . ألقت إلى إدارة أملاكه الواسعة . وكان في كل عمل تولاه مثال الكفاءة والنشاط والابتكار ، ولكن بعيداً عن شؤون السياسة ، أو إدارة الحكومة .

رئاسته لمجلس شورى القوانين

وفي سنة ١٩٠٩ أسندت إليه رئاسة مجلس شورى القوانين فأحسن إدارتها . وأعلى شأنها . وكان فيها وفي الجمعية العمومية . التي تألفت في ذلك الوقت مثالا يحتذى في النزاهة والعدل . والانصاف .

تأسيس الجمعية الزراعية

ولما كانت للأمير حسين الخبرة العظيمة بأمور الزراعة ، والأحوال الاجتماعية للزراع ، فقد أتجهت منه إلى بث روح النشاط والتنافس بينهم فأسس الجمعية الزراعية لتقديم بما يقتضونه إليه من الارشادات حتى أصبحت صورة لأروع معاني التعاون الزراعي المتعارف عليه في بلاد الغرب . وقد نجحت جهوده النافعة في هذه الناحية .

لأن توليها من بعده المغفور له سمو الأمير عمر طوسون . فوسع نطاقها . وعمل على النهوض بها . حتى تعددت بفضلها خدماتها للبلاد . وشملت عنايتها الصناعة : وساهمت بنصيب وافر في كثير من نواحي النشاط العلني والاجتماعي والاقتصادي والعمرائي على وجه العموم .



المغفور له الأمير عمر طوسون

السلطان حسين علي عرش مصر

ولما قضت الظروف بتنازل المغفور له الخديوي عباس عن عرش مصر . تقرر استناد عرش البلاد إلى المغفور له الأمير حسين كامل . ونودي به سلطاناً على مصر . وكان سموه آنذاك في مزارعه . فاستدعي للحضور إلى العاصمة . وأقيمت مهرجانات شعبية عظيمة ابتهاجاً بذلك . وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت هو المغفور له (حسين رشدي باشا) .

حبه للمساواة

وما أذكره يوم أقيمت التشريفات التي تقدمت فيها الوفود برفع شعائر الولاة . وآيات التهنئة لعظمته بمناسبة تقلده العرش . أن خص الأعراب المصريين بكلمات تكشف في معناها عن حبه للمساواة في التجنيد بينهم وبين بقية الشعب . فلما أراد المغفور له حمد الباسل باشا . وكان على رأس وفد للأعراب من أهالي الفيوم أن يتكلم . قاطعه عظمته قائلاً : « قل للجميع أننا مصريون قبل كل شيء . . . والكل متساوون . فلا معنى للفرقة » !

أنفته وكبرياؤه

وكانت لعظمته مواقف كلها آنفة وكبرياء نفسي . تشهد بالعظمة . فقد حدث عند ما رغبت الحكومة الانجليزية بعد المناذاة بالملك حسين الهاشمي ملكاً على الحجاز . أن يدعى له في مساجد مصر . أنه خليفة للمسلمين . فرفض ذلك عظمته . ووقع رفضه هذا المندوب السامي البريطاني يومئذ - السير مكماهون - في دهشة وورطة . كان من جرأتها عزله من منصبه بعد أيام ...!

حادث زيارته لمدارس الأقباط

وحدث مرة أن أراد عظمته زيارة مدارس الأقباط الكبرى في القاهرة اسوة بباقي المدارس التي زارها . فاتفق ديوان التشريفات مع المرحوم يوسف وهبه باشا الذي كان وزيراً أياماً - بأن لا يحضر حفلة المدارس من الأقباط سواه . فاعترضت على ذلك . وأوضحت لرئيس التشريفات - وكان أياماً المرحوم سعيد ذو الفقار باشا - بأن ذلك يحمل أحد معنيين . إما أن عظمة السلطان غير راض عن الأقباط . إلى حد أن لا يحضر منهم فرد . في خلال تشريفه لمدارسهم . وإما أن الأقباط غير راضين عن هذه الزيارة . وكلا الأمرين ليس صحيحاً . وطلبت أن يكون عظماء الأقباط في شرف استقباله . لانهم أصحاب البيت . ومن واجبه أن يكونوا أول المرحبين بقدومه السعيد ...

والظاهر أن كلامي هذا أول لدى عظمته تأويلا على غير حقيقته ، إذ نقل المرحوم محمود شكرى باشا ، الرواية على أنى غير راض عن النظام المعمول به فى التشريعات - ولكن تدخل سمو الامير احمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد) والمغفور له حسين رشدى باشا رئيس الوزراء فى الأمر ، أعاد الحقائق إلى نصابها ، فاستدعانى عظمته وهش فى وجهى ، واستقبانى استقبالا غمرنى بالرضى والسرور ، وفعلنا عمل بالرأى الذى أبديته ...

بره بعضه الرجال

ولما توفى المرحوم اللورد كاتشر فى عهد عظمته ، أقرحت اعترافاً بخدماته للبلاد ، عمل اكتباب لتشيد تمثال

له تخليداً لذكراه ، فاتخذ بعض الوشاه هذا الاقتراح ذريعة للانس عفى لدى عظمة السلطان ، ولكنه حين اطلع على الحافز النبيل الذى دفعنى إليه ، استصوبه واكتب من جيبه الخاص بخمسة جنيه مساهمة فى المشروع ... ولكن رأتى أن ينشئ بالمبلغ المكتتب به ، مدرسة للقبالات لرعاية الأمومة والكى عارضت هذه الفكرة لما هو معروف عن كاتشر من بعده طيلة حياته عن النساء . وطالبت بأن من الاصوب جعل المشروع الذى يخلد به ذكراه ، متفقاً مع مبادئه . بحيث يعم النفع منها كل الطبقات ، ولكن اللورد (سيسل) - وكان أيامئذ مستشاراً للمالية ، قد رد رداً غليظاً غير مهذب ، بقوله أن الرأى قد انعقد على إنشاء مدرسة (للقبالات) ... فأجبت عليه قائلاً : لو كانت هذه الأموال



المرحوم اللورد كاتشر

التي أكتببت بها الجاهير من جيبك الخاص ، لحق لك أن تفرض العمل الذى تريده . أما وهذه الأموال ، هى أموال الشعب . فهو وحده الذى يرى فيها الرأى الأول والاخير ،

فلما اطلع ، سيسل ، على هذا الرأى قابلنى . وقدم اعتذاره . ثم أوضح لى من الاسباب . ما جعلنى أرضخ لفكرة إنشاء مدرسة للقبالات ، وهى الموجودة فى شبرا الآن ..

ذكريات مطوية من أسرار الحرب الماضية

وفى عهد عظمة السلطان حسين كامل ، حدث أن وشى للحلفاء الواشون الكاشمون . بأن المغفور له الأمير عمر طوسون - طيب الله ثراه - معاد لهم . متآمر مع الوطنين فى مراكش والجزائر وتونس ضدهم . وأنه يمد أعينهم هؤلاء بالاموال والأسلحة ... وكنت إذ ذاك فى أوروبا . وسموه هناك أيضا - وأحرب مستعرة الاوار مشبوبة النيران - فلما عزمنا على الحجى إلى مصر - وكان سمو الأمير عمر طوسون - قد سبقنى لمرسيليا . وأنا وغيرى من المصريين خفتنا به إليها على نية قيامنا جميعاً لمصر . ولكن بمجرد



(الانوار) تافىق بهم باشا

وصول سموه إلى الميناء. حجزته السلطة العسكرية وأمرته بعدم الرحيل إلى مصر فلما وصلت أنا إلى مارسيليا ، عدته لما بيني وبين سموه من أواصر الصداقة المتبادلة . فرد لي الزيارة بالفندق الذي كنت نازلاً فيه ، ولما كان سموه محاطاً بعدد من الجواسيس فقد اتخذوا من هذه الزيارة ذريعة لأن ينسبوا إلى ما نسبوه لسموه فصدرت لي أنا أيضاً أوامر أخرى من البوليس بعدم مباحثي لمارسيليا وعدم عودتي إلى مصر . فهلاني هذا الأمر جداً من تلك المعاملة التي لم أعرف لها من سبب . فظللت لرئيس الجمهورية الفرنسية ولوزير خارجيتها وكان إذ ذاك المسيو ديلاكسيه . وكنت أعرفه شخصياً . كما تظلمت للورد كيتشنر الذي كان وقتها وزيراً لحرية إنجلترا وبلغت المرحوم حسين رشدي باشا الذي كان رئيس الحكومة المصرية وقتها وبعد زمن صدر لي إذن بالسفر إلى مصر ، ففكرت كثيراً لحل هذه الأزمة . ولكن سروري لم يدم طويلاً . إذ بمجرد ركوبي الباخرة عاد إلى في منتصف الليل رئيس البوليس السري وأمرني بالنزول منها وأخذني في سيارة مسلحة وأخبرني أنه صدرت إليه أوامر جديدة تحالف التصريح الذي أعطى لي . وقال : أي الفنادق تريد السكنى فيها ؟ فقلت له . الفندق الذي يقيم فيه سمو الأمير . فقال أنصحك أن لا تفعل !! لأن في هذا الأمر صعوبة . وهو ليس في صالحك فقلت له ، أما متهم بذات التهمة الموجهة لسموه . فلا داعي لافترادي بنفسى بعيداً عن إنسان أحبه يسلمني ويسرى عني فاجرى عليه يجرى على والأمر لله !

وعلى ذلك سارت بنا السيارة بسرعة إلى الفندق الذي كان به سمو الأمير . وفي الصباح دهش سموه كثيراً لما رآني فقصصت لسموه ما جرى . فتكدر جداً أما أنا فقد عدت فكررت الشكوى حتى أنفقت على البرقيات التي أرسلتها لهذا الغرض كل ما كان معي . وبعد مضي مدة كنا محاطين فيها بالجواسيس أينما ذهبنا صدرت أوامر جديدة بالسماح لي بالعودة إلى مصر . وعند ما وصلت إلى أرض الوطن أراد الأمير حسين (السلطان حسين فيما بعد) مقابلتي ليستعلم عن حالة البرنس عمر فترددت بل رفضت المقابلة خوفاً من أن ينالني ضرر جديد خلاف الضرر الذي مني بسبب الأمير — وبعد أن اطمأنت تشرفت بمقابلة عظمتة فعاتبني على التأخير فعرضت عليه السبب . وأخيراً قال لي . ماذا ترى في حل مشكلة الأمير عمر ؟ فقلت أن سموه يعلق كل آماله على همتك ويعتبرك رأس العائلة . ويترك لك الأمر للعمل على نجاته من هذه الورطة . فقال لي : إني فعلت كل ما استطعت ولكن لم تزل بعض العقبات أمامي ؟ فقلت له : هل استعنت باللورد كيتشنر ؟ فأنا أعرف أنه ذو همة عالية . ومروءة كبرى . ولو طلبت إليه المعاونة لاجاب طلبك ! فقال : هذا آخر سهم عندي . فأخشى أن استعمله الآن فيخيب أو يطيش ! ولذلك فاني سأبقيه للفرصة المناسبة . وتحدثنا أخيراً في أحوال أخرى واستأذنته وانصرفت

وظل الأمير يجاهد وساعده على ذلك توليته على العرش المصري ، وحينذاك أمكنه إنقاذ سمو الأمير عمر من موقفه الحرج الذي كان فيه وقدم لمصر معزراً مكرماً

وهذه حسنة من حسنات المغفور له السلطان حسين . وكان سموه بعد عودته كلما رآني يتبسم ويقول لي :
(أهلاً بزيملي) !

والخلاصة . . .

وجملة ما يقال أن المرحوم السلطان حسين كان رجلاً وطنياً صميماً يحب البلاد وخيرها ويميل أيضاً إلى التعرف بأعيانها وكبارها وخصوصاً إلى البيوت القديمة العريقة في المجد . وكان كريماً كريماً حاتماً . يميل إلى إقامة المآدب والولائم وإظهار وجوده للجميع . وكان عزيز النفس كبيرها شغفاً بالآبهة والظهور مع الشعم والكبرياء . عصبي المزاج حاد الطبع . متقلب الأحوال سريع الخاطر ماضياً في المعاملة خصوصاً عندما يعتقد أنه على حق . ومع سرعة تأثره وشدة بطشه كان رحيم القلب قريباً إلى العفو ، بعيداً عن الحقد . وكل ما هنالك أن غضبه كان يشب شوب النار التي لا يستمر سعيها إلا دقائق . . !

وكان إلى جانب ذلك متصفاً بكثير من خصال والده العظيم الخديوي اسماعيل يحب ارتقاء البلاد ، ونمو الثروة وتقدم الزراعة واتساع العمران : وقد اقترح عليه الانجليز يوماً أن يغير النشيد الخديوي الذي كان قد وضع في عهد أبيه المغفور له اسماعيل . بنشيد آخر ، فأبى ذلك كل الآباء وقال إني أود استبقاء ما فعله أبي تذكراً أبدياً ، لأنه كان تواقاً إلى مجد البلاد .



عهد المغفور له سمو الخديوى عباس حلمى الثانى

لا شك أن المغفور له الخديوى عباس حلمى الثانى . كان من أعظم الخديويين الذين ولوا عرش مصر وبرزهم شخصية . واكثرهم فطنة ، وأشدهم ذكاء . وكان المأثور عنه . لطف المعشر . وطلاوة الحديث ، وبلاغة البيان ، الى حد يجذب معه القلوب ، ويستأثر بالالباب . . . وكان جم النشاط ، دافق الحيوية . موفور القوى النفسية . دائم الحركة . لا يدرك للجمود ، أو الركود معنى . أو يعرف الكلل من العمل . أو الملل منه سبيلا اليه . وكانت لدفراسة . تتجلى في توقد ذهنه ، بحيث يستطيع معها ان يستقرى . من مجرد النظر الى أى شخص ما يحول في ذهنه من الخواطر ، وما يتمشى بصدوره من الخواجا والانعالات — وكان مغرمًا بالزراعة والصناعة ، عاملا على تنمية نهضتهما بالبلاد . توافقا الى أن يراهما في مستوى رفيع يماثل نظيره في الأمم الراقية . محبا للأسفار ، عاكفاً على فهم دقائق الأحوال السياسية في البلدان التي يزورها . معنياً اكبر العناية بسياسة الاقطار الشرقية لارتباطها بالخلافة الاسلامية . التي كان طامعاً فيها ، متضلعا اليها — أعنى أن ينقل الخلافة من السلطنة العثمانية . الى الخديوية المصرية ، ممثلا في هذه الناحية اصحاب جده الخديوى اسماعيل العظيم !!



سمو المغفور له الخديوى عباس حلمى الثانى

توليته العرش

ولقد تولى الخديوى عباس عرش مصر ، بعد وفاة والده الخديوى توفيق . وكان ابانئذ يتولى مقاليد الوزارة المرحوم مصطفى فهمى باشا ، فبادر الى دعوة سموه من الخارج . حيث كان يتلقى علومه في جامعة فيينا ، فحضر سموه ، واستقبل استقبال الفاتحين . بحفاوة شعبية عظيمة تبدت فيها محبة الأمة لولى أمرها . وكان شبابه الغض يجتذب اليه قلوب الأمة ، اذ لم يكن قد جاوز الثامنة عشر من عمره .

ويعتبر عهد الخديوى عباس . بدء الجهاد للتحرر من قيود الاستعمار وتحطيم الأغلال التي كانت تصفد البلاد وفاقحة عهد النزوع الى الاستقلال لاستكمال سيادة مصر . . . فبمجرد أن تبوأ الخديوى عباس عرش آبائه وأجداده . حتى أظهر وطنية صادقة ، وجنح الى الاستئثار بالسلطان . وأشرف فعليا على مراقبة أعمال الحكومة ، فكان أول من ابتدع عقد مجلس النظار برئاسة . للامام بالمسائل الهامة التي ينظرها . وقد كان سموه . لرغبته



الرغم الوطنى المغفور له
مصطفى كامل باشا

في التخلص من قيود الاحتلال . يوالى بتشجيعه الهضة العسامة التي أنبتقت في البلاد . بقيادة الحزب الوطنى ، الذى كان يعمل على تقلص نفوذ المحتلين كما أن سموه آزر الحركة الفكرية التي نشأت برئاسة المصلح المجدد الشيخ « محمد عبده » وترى في مجموعها إلى تجديد المجتمع المصرى . وفي الوقت نفسه رعى من وراء ذلك إلى أن يكون خليفة للمسلمين ، وغير ذلك من الأطماع التي تم على علو نفسه . وتوقع إلى كل ما من شأنه أن يغدو به ولى الأمر الفعلى في مصر ، بغير أن يجد من سلطته تداخل الأجانب ، أو نفوذ المستعمرين .



المفتون له الشيخ محمد عبده

ولا يعيب هذه الحركة شيء من جانب سمود ، بقدر ما يعيب بعض من كانوا يعملون فيها . للاستغلال الشخصى . وجر المغنمات لأنفسهم ، من غير مبالاة مصالح الوطن !!

أهم الحوادث التي وقعت في عهده

ولا ريب أن عهده يمتاز بطائفة من الحوادث البارزة ، التي لم يكن مندوحة من وقوعها ، نتيجة لتصادم المصالح ، وتنازع السلطة والنفوذ . بين سمود وبين أقطاب المحتلين ، الذين كانوا يتشبثون بمراكزهم في البلاد . وأهمها : مسألة إقالة الوزارة ، الفهمية ، - ومسألة الحدود - ونفى البطريرك القبطى - والمؤتمر الإسلامى والقبطى . ونذكر كل منها فيما يلى ، بقدر ما يتسع له المقام :

إقالة وزارة مصطفى فهمى باشا

وأما مسألة إقالة الوزارة (الفهمية) فيمكن تلخيصها ، في أن هذا الوزير العظيم - المرحوم مصطفى فهمى باشا - كان على رأس الوزارة المصرية ، عند ما ترع على العرش سمو الخديوى عباس . وكان رجلاً هادئاً ، بطبعه ميالاً إلى الحكمة : فيه رقة ، وبه وداعة : أطمعت فيه بعض الجهلاء . الذين أشاءوا عنه أنه صنيعة الانجليز : حتى لقد وقر في ذهن سموه أنه (إنكليزى) النزعة : بالدم والقطرة : وأنه يمثلهم على حساب الوطن ويساومهم في حقوق البلاد !!



المفتون له

مصطفى فهمى باشا وبجانبه مؤلف (فئى فهمى باشا)

بعض الاسرار الخفية

وحدث أن ألم بمصطفى فهمى باشا : مرض حمله على الاعتكاف في منزله . فانتبه بعض الوزراء هذه الفرصة وكانوا طامعين في كراسى الحكم : وظلبوا إقالة الوزارة (الفهمية) - لاسيما وأن المرحوم محمود شكرى باشا وكان رئيساً للديوان التركى بالقصر كان

يتعقب الأنباء عن حالته الصحية . فيتردد عليه متظاهراً بالاستفسار عن صحته ، ظاناً أن مديته قد قربت - لأنهم كانوا يعلمون أن هذه هي رغبة الجنب الخديوي :- فيكون ذلك أسهل وسيلة للتخلص منه . ولكن صحة رئيس الوزارة أخذت في التقدم : إلى حد تماثل معه للشغاف تماماً . فأوعز محمود شكرى باشا إليه : بأن يقدم استقالاته حرصاً على استكمال أسباب العافية : لأن صحته لم تعد تمكنه من الاضطلاع بأعباء الحكم : خصوصاً وأن سمو الخديوي يرغب في تأليف وزارة جديدة : فلما أدرك مصطفى باشا المقصد من هذه الأحاديث قال لشكرى باشا :

- : « إنى أرجو الجنب الخديوي : وأنا محب للبيت الخديوي : مفعم القلب بالولاء له : أن لا يفعل ذلك : ويراجع نفسه في الأمر : ويتروى فيه مع اللورد كرومر ... وأنا لا أنكر أنه ملتهب الشباب : شديد الاندفاع - وأخشى أن كرومر : يعارضه في هذه الرغبة ، !

فلما أفضى شكرى باشا بهذا الحديث لسمو الخديوي كبر عليه سمائه ، ولم يخل الأمر من بعض زيادات مختلفة وحواشي مفتعلة ، لم تصدر من مصطفى فهمى باشا ، فأصدر سموه على الفور مرسوماً بأقالة وزارته ، وعهد بتأليف وزارة أخرى إلى المرحوم نغرى باشا ...



المرحوم له مصطفى فهمى باشا وبجانبه (الموقف)

وهنا ثارت ثائرة كرومر . لأن الخديوي تخطاه ، فلم يستشره فيما عمل . وقام وقعد . وطالب بأقالة الوزارة الجديدة بدوره ، والعمل على ارجاع الوزارة والفهمية . . . وكانت أزمة حادة ، تخرجت معها الأمور ، إلى درجة لم تعهد من قبل !!

ولكن بعض الوزراء ، تدخلوا في الأمر ، ورؤى خلاصاً للحالة . أن يستقيل نغرى باشا . ويعهد بمنصبه إلى رياض باشا . وأنقضت المسألة عند هذا الحل !!

على أن ذلك قد خلف في الصدور بعض الاحقاد ، ورؤى حرصاً على نفوذ ولى الأمر في البلاد ، أن يستقبل بعض وفود

الاعيان ، وكبار الموظفين . لتقديم التهانى لسموه على هذا الموقف الوطنى المشرف ، فنجت إلى قصر عابدين جموع حاشدة من علية القوم ، والكبراء ، والعظام ، لهذا الغرض .

بين سمو الخديوي وبينى

وما هو جدير بالذكر أنى تشرفت بالمثل بين يدى سمو الخديوي ، ضمن بعض هذه الوفود . فأستقبلنا بوجه مشرق . وصدر منشرح ، مما يدل على شدة اغتباطه بالعمل الذى نقده . والنصر الذى ناله في سياسته الاستقلالية وعدم مبالاته بالعواقب . وكان يستفسر أعضاء الوفود قائلاً : « هل أنتم مرتاحون إلى ما عمل ، ؟ فكان جوابهم : نعم ! نعم ! يا أفندينا . . . أطال الله عمركم ، !

وكان بعضهم يجيب : « إن الله قد كتب خلاص البلاد على يديكم . وما رأيانا من قبل مثالا لهذا الخناس أو لهذه الرغبة الصادقة في خلاص البلاد نظيراً من أحد قبلك ، !

وهكذا من الكلمات التي تناسب هذا الموقف — ولكن الحقيقة أنها كانت كلمات تشوبها عبارات النفاق والرياء . لأن الكثيرين من قائلها كانوا بمجرد انصرافهم من الحضرة الخديوية ، يتوجهون إلى دار المعتمد البريطاني . ليسمعوه نقيضها ...

وتلك لعمري بعض ما يشوب أخلاقنا الوطنية من نقائص وعيوب !! وأنا أعتقد أن هذه الصفات إنما هي ناشئة من الذل الذي ثوى في صدورهم . وتمشي فيها نتيجة لعمود الاستبداد القديمة ، والمظالم الجائرة التي أنصبت فوق رؤوسهم منذ أزمان طويلة ... ولعل لهم العذر . ونحن نلوم !!

وعند ما شرفني سمعته بمصاحفي ساعة الانصراف — ولم أكن قد تكلمت ابداً — استوقفني لحظة ، ويده الكريمة في يدي وسألني قائلاً : « لم لم تتكلم ؟ ولم لم تبد رأيك بصراحة ، وأنا أعلم أنك حر الرأي !... قل كلمتك . فاني أود سماعها ، !

— قلت : يا أفندينا ... إنني طمعاً في مكارم أخلاقكم ، أقرر بأن رأيي يخالف لرأي الجميع . فان أذتم لي يا مولاي تكلمت ، ! فأجاب : « قل ما تشاء !! ،

— قلت : « يا أفندينا ... إن ما حدث وإن يرضى أطباع شبابكم المبارك ، ونفسكم العالية التي تتوق إلى تحرير البلاد ، لا يفيد مصر . ولا شخص سموكم ، أعزكم الله . بشئ ... بل هو يترك في النفوس آثاراً يحوها ليس بالأمم الهين وسوف يؤخر بعض الإصلاحات الداخلية التي ترقى بها البلاد — واعتقادي أن هذا العمل ، على ما فيه من مظاهر الوطنية ، لا يخرج الإنجليز من مصر ، ولا يزعج قيد شعرة من الاحتلال الجاثم على صدرها ... وأعتقد أن هذا يعتبر في رأي الإنجليز ، عمل عدائي يتحدى سلطانهم . ولهذا أرى أن الجو كلما يصفو بين سموكم وبينهم يكون ذلك أعم خيراً للبلاد وأكثر نفعاً للعباد . وبذلك يكون لسموكم الأمر الأعلى ، إذ أن تعليماتكم السنية تكون في حالة التفاهم والصفا . هي وحدها التي يطيعها النظار ، أما في حالة الخلاف ، وتباين وجهات النظر فسوف تعدد مصادر النفوذ لدى النظار بينكم تارة وبين المعتمد البريطاني تارة أخرى . !!



الأمير
سمو الخديوي عباس حسن الذي يتحدث إلى المراف (قلبي ومي باشا)

فأطرق سمعته مفكراً . قليلاً ثم قال على الفور :
« نعم . هذا رأي شديد ، يصلح على الأحوال الحاضرة ، ولكنني أراه ثقيلًا على نفسي ، !

فقلت لسموه : « إن كان أفندينا يرى الأمر كذلك ، فهناك أمر آخر يمكن به التخلص من دسائس النظار ، وما ينجم من تنافسهم على كراسي الحكم من الشجناء ، والتباغض ، وجر الأهوال على البلاد ، وذلك بجعل مناصبهم مناصب شرف ، لا يدفع عنها المرتبات المعزية ، بل يقرر لها مبلغ رمزي . (كمصاريف انتقال) قدرها ٤ جنيه في

الشهر الواحد ، كما هو المعمول به في سويسرا . والسويد . وبعض ممالك أوروبا الديمقراطية .. لأن المرتب الضخم يغري النظار بالتشبث بمنصب الحكم . ولو باعوا في سبيلها ضمائرهم . ومصلح بلادهم . ومن فيها ، وعلى رأسها

سيدها ، ! وهنا تطلع إلى سموه وقال والبشر يغمر أساريه : « إن هذا الرأي يعجبني . ولكن تحقيقه عسير ، لأن هذه المرتبات الضخمة كما تعلم ، إنما جعلت للنظار ، كضمن اشتراهم به الاحتلال الإنجليزي . ليكونوا خاضعين له ، منفذين لرغباته ، !

وانتهى هذا الحديث على مسمع من الكثيرين ، واستأذنا في الانصراف ، وأذكر أن بعضهم حين خروجنا ، حملوا على حملة شعواء : ونددوا بصراحتي في القول : ولكنني لم أبال بأقوالهم : ولم أكثرث بهم : وقلت لهم لو تجردتم من التفاف وصفات المداهنة ، لرأينا أحوالنا غير ما هي عليه الآن ... لأن الأمم الحية : في العالم المتقدمين ، تربي أبنائها وحكامها على الصراحة : وتهذب أخلاقهم بالتعود على مجابهة الحقائق : كي تكون سياستهم للبلاد رشيدة مستقيمة . . أما نحن فبدوام تملقنا الكاذب : وريائنا ونفاقنا الذي لا يحتمل : فانتنا نسعى إلى بقاء الفساد ، ودواء التأخر ... فكونوا كما تريدون : واتركوني وشأني : أكون كما أريد !!

حادثة الحدود !

كان سمو الخديوي عباس — كما ذكرنا — شديد الحماس : تملأ قلبه الوطني : ملتهب النفس : شبابا وقوة : وغيره وحيوية : عند ما تبوأ عرش مصر : وكان زعماء الحزب الوطني : ودعائه محيطين به : وكان سموه لاتفاق نزعاته معهم : يشايع مبادئهم الاستقلالية : ويشجعهم ويرعاهم بالعون والمساعدة — وكان أهم ما يسعون لتحقيقه من الاهداف ينحصر في طلب الاعتراف ، بالاستقلال الذاتي ، لمصر وفق معاهدة سنة ١٨٤٠ وفرض الرقابة على أعمال النظار مع احترام الشعور الاسلامي بالانضمام إلى الخلافة الاسلامية .

ولما كان هناك تضارب في المصالح بين نفوذ الدولتين الكبيرتين ، إنجلترا وفرنسا ، فقد كان قنصل فرنسا المدعو ، دي ريفسوه ، يستغل الخلافات التي تنشب بين الخديوي والمعتمد البريطاني ، لتحقيق سياسة التباعد بينهما لمصلحة بلده — فكان يؤكد في كل مناسبة ، يلح فيها تلبد السحب في جو هذه العلاقات ، استعداد فرنسا لموازرة جناب الخديوي ضد بريطانيا ، فاطمع هذا أكيد سموه ، فكان كلما وقع خلاف ، لا يتنازل فيه عن وجهة نظره ، مهما كان فيها من شدة وحدة ، لأنه آنس من فرنسا استعدادها لمعاونته ونزكية رأيه ... ولذلك عندما قصد سموه إلى الحدود لزيارتها ، واستعراض الجيش المعسكر هناك ، عاب أنظمتها ، وتدريباته ، وأنقد القواد والرؤساء الانجليز المشرفين على ذلك ، فأمتعض اللورد كتشير وتألم في نفسه ، ولكنه كظم ألمه ، وبادر بعد انتهاء الاستعراضات إلى ابلاغ اللورد كرومر بما حدث ، فأصل بدوره بوزارة الخارجية البريطانية وأفضى إليها بجملة الأمر ، وتلقى تعليماتها الصريحة بما يتخذ في الموضوع .



المرحوم اللورد كرومر

وفي أثناء ذلك كان سمو الخديوي قد اجتاز مديرية أسوان

وأخذ يطوف مديريات الوجه القبلي حتى بلغ إلى مديرية الفيوم — ففي ذات يوم توجه اللورد كرومر إلى دولة رياض باشا رئيس النظار وطلب إليه أن يبلغ سمو الخديوى ، بأن يعلن شكره للجيش ، لأنه يعتبر اليوم الوجه إليه لوماً لرؤسائه الانجليز وعلان شكره اللورد كذشتر قائد الجيش ، وثناؤه على جهوده والأنظمة المتبعة فيه ؟ فلما سمع رياض باشا تهديد كرومر واندازه المفاجئ ، كبر عليه الأمر ، وقال له : « كيف تطلب المستحيل ؟ ! إن سمو الخديوى بوصفه القائد الاعلى للجيش من حقه أن يوجه ما يشاء من الملاحظات ، وأن يتدخل في كل نقص يجده في الجنود والضباط ما دام يرى ذلك ضروريا ، وفي المصلحة العامة . !

فأجابه اللورد كرومر بأن سموه لم يقصد بنقده . سوى الخط من كرامة الضباط الانجليز ، والمساس بأنظمتهم المتبعة في الجيش المصرى . لانهم أساندة الجيش المصرى ، واذن فان ما حدث هو اهانة تلحق الدولة البريطانية مباشرة !! وعليه اتفق الاثنان على ترك المسألة لرياض باشا للتدبر فيها ، بما يقتضى الموقف عند عودة الخديوى من رحلته — واكن كرومر أصر على عدم عودته قبل البت في الامر ، بما يرضى رغبات الانجليز ، عندئذ تبين رياض باشا حرج موقفه ، ووقع في حيرة شديدة ، لانه لمح العناد والتهديد في سياق حديثه مع اللورد كرومر !!

موقف فرنسا المشين !

عندئذ فكر أولاً فى أن يقابل قنصل عام فرنسا ويستطلع رأيه فى الامر ، فعندما قابله لمح فتور حماسه ، وجموده حيال ما سمعه . وأحسن إلى أى حد تغيرت لهجته وأراؤه معه ، إذ قال لرياض باشا : « إن سمو الخديوى قد أسرف فى شدته ، وأن فرنسا لا يمكنها التدخل فى ذلك أبداً ، ؟ فقال له رياض باشا : « يا جناب القنصل ، أطمئن فأنى كثيراً ما قلت لسمو الخديوى أن فرنسا لا تثبت على رأى تبديه ، ولا تبر بوعده تقطعه على نفسها ، وهامى ذى الآن تبرأ من كل وعودها !! ، فقال القنصل : « لقد قلت لسمو اننا نتدخل عندما يقع سوء تفاهم ، على ان لا يعدو هذا التدخل حدوده الودية ، بحيث يمكن تسوية المسائل المختلف عليها بطريقة لينة ، ! وبهذه الكيفية تحللت فرنسا من عهودها ، وتنصل قنصلها من موافيقه — وكان ذلك مفهوماً اذا اطلقت انجلترا يد فرنسا فى شمال افريقيا ، فى نظير اطلاق يدها فى الاخرى فى شؤون مصر !!

حكمة رياض باشا

إزاء ذلك لم يكن امام رياض باشا الا أحد أمرين اثنين ، أولهما أن يرفض اجابة طلب اللورد كرومر ، ولا يذهب الى الفيوم لعرض الامر على سمو الخديوى ، فيترتب على ذلك ما يترتب من نتائج مبيتة — والامر الثانى ، هو أن يستميل سموه للعمل على تسوية المسألة ، وفق مصالح البلاد ، بما يحفظ للعرش كرامته ، وأخيراً سافر دولته بكامل هيئة الوزارة ، وعرض الامر على سموه ، وهكذا سويت المسألة بالطريقة المعروفة .

وكان من أثر ذلك أن عاد سموه من رحلته ، ونزل فى قصر القبة فترة من الزمن . وعكف على تصريف الأمور من هناك ، محتجباً عن الأنظار ، وأخيراً انتقل الى قصر عابدين ، بعد مضي مدة طويلة ، وأنى اقرر ذلك لأنى بحكم وظيفتى وللازمتى للرحوم رياض باشا كنت محيطاً بدقائق الأسرار ، وخلاصة الأخبار ، مطلعاً على ما يدور خلف الستار !!

المؤتمران القبطي والاسلامي

ومن أبرز ما وقع في عهد الخديوي عباس من الحوادث ، مصرع المرحوم بطرس غالى باشا ، بعد توليه الوزارة خلفاً للمرحوم مصطفى فهمي باشا - إذ اغتاله مجرم أثيم بعد فترة قليلة من تربيته في منصب الحكم . وهمم تكن الأسباب التي أدت الى هذا الاغتيال السياسي ، الذي شهدته مصر في عهدها الحديث ، فان سمو الخديوي ، وكان يولي وزيره الكثير من الثقة ، قد اظهر من روح العطف ، ما غمر معه أسرته برضاه السامي . . اذ قصد ، - خلافاً للتقاليد - بنفسه الكريمة ، الى منزله ، معزياً ، بما خفف وقع المصائب حتى لقد توجهت الحرم المصون ايضاً الى حرم بطرس باشا ، وقدمت لها عزاءها الكريم - فكان هذا في الواقع رعاية لم تعد لها رعاية أخرى لوزير سواه !!



المنصور له بطرس غالى باشا

ولقد حدث أن بعض صفار العقول من الأقباط أدخل البعض في نفوسهم ، بأن لهم حقوقاً ضائعة يجب أن يعملوا على استكمالها ، حتى تكون معاملتهم على قدم المساواة كغيرهم من أبناء الوطن ، فانهقد الرأي بينهم على عقد مؤتمر يقررون فيه مطالبهم ويعلنون فيه أغراضهم . فنشأت بذلك فتنة بين عنصرى البلاد لا سيما وقد عقد مؤتمر اسلامي ايضاً .

كيف أخذت الفتنة

لذلك رأيت وأنا الوحيد الذى نأى بنفسه عن مواطن الشبهات ، أو الاشتراك في هذه المؤتمرات ، اذ قاومها وكنت خراباً عليها ، ان خير وسيلة لتجنيب البلاد الويلات التي تبسفر عنها - هي أن أعرض الأمر بخلافه على وزارة الخارجية البريطانية ، فسافرت إلى لوندرا وبسطت الموضوع من مختلف نواحيه على وزير الخارجية المستر ادوارد جراي الذى أقتنع بوجهة نظري ، وحمد الغيرة الوطنية والزعمة الانسانية التي حملتني على أن اكلف نفسي مشقة السفر وعثائه . للحضور خصيصاً لحل مثل هذا الاشكال ، وأصدر اوامره المشددة الى اللورد كتشتر الذى ولى في ذاك الوقت منصب ، العميد البريطاني ، بأن يفض هذه المشكلة فقابلني في لندن وتفاهم معي في الموضوع ووعدني أنه بمجرد أن تطأ قدمه أرض مصر يفض المؤتمرين حالا - فدعا زعماء المؤتمرين وعمل على حملهم على حلها واعتبارهما كأن لم يكونا ، وكان في ذلك العمل الذى لقي ارتياحا لدى اللورد كتشتر ، ما ساعد على إعادة المياه الى مجاريها ، فحل الصفاء والسلام بين عنصرى الأمة المصرية محل الشقاق والخصام . وبذلك تجلّت وحدة الأمة فيما تعاقب من الزمن في أجلى مظاهرها . . . !

وأنى لفخور بأنى كنت ممن سلكوا سبيل السلام والوئام ، مبتعداً كل البعد عن كل تعصب ، لأن التسامح وحب التضامن كان شعارى على الدوام !!

حادث نفى البطريرك

كان البطريرك ، المتنيح ، الانبا كيرلس ، بطريرك الاقباط الأرثوذكس ، قديساً بمعنى الكلمة ، طاهر القلب



المتنيح الانبا كيرلس البطريرك الأسبق

صالح الاعمال بعيد النظر ، حكيم الفكر ، في أعماله واقواله - وكانت له مكانة ممتازة ، وكلمة محترمة لدى الجميع من كل الملل والأديان - يستوى في ذلك المسلمون ، والمسيحيون والأفرنج - وكان الإنجليز يحبونه كثيراً ، وكذلك الجناح الخديوي يحترمه للغاية للصفات الرفيعة التي كانت تزينه . وقد حدث أن وقع خلاف شديد ، اتسعت معه الهوة بين المرحوم بطرس غالى باشا ، وبين غبطته ، أدى إلى أن يلتبس المجلس الملي من سمو الخديوي ، العمل على نفيه هو وزميله ، المتنيح ، ، نيافة ، الانبا يوانس - مطران الاسكندرية آنذ - بزعم أن المبادئ التي كان يسير عليها البطريرك ، لا تطابق الآراء العصرية التي يدعو إليها رجال المجلس الملي ، ويلتمسون بها اصلاح أحوال الطائفة القبطية حتى يكون ذلك الحل ، علاجاً للأمر فتشول معه شؤونها العامة إلى أعضاء المجلس الملي الذين أخذوا على عاتقهم الاضطلاع بمهمة الاصلاح !!

ولقد جرت العادة ، في المحيط القبطي ، على الخضوع لواحد من زعمائهم ممن يكون منهم في منصب حكومي رفيع ، فيصبح لديهم مسدوع الكلمة مطاعاً ... ولقد عرفت شخصياً منذ نشأني أربعة من الزعماء من هذا القبيل أولهم : المرحوم ، وهبه بك الجيزاوى ، باسماحى الحكومة ، الذى كان موضع ثقة سمو الخديوي اسماعيل ، وكان الاقباط جميعاً يحولونه ، ويحترمونه وينقادون لرأيه ، وثانيهم خليفته المرحوم : دميان بك ، وبعده المرحوم : عريان بك ، إلى أن حل محله المرحوم بطرس غالى باشا ، فقد كان آخر هؤلاء الزعماء الذين تملأ كلمتهم أسماع الاقباط ، وتحترم في أوساطهم ... وبعده أصبح كل قبطي مهما كان مركزه ، ولو كان نجاراً أو حداداً يعتبر نفسه من الزعماء .. لأن الزعامة قد غدت في بلادنا أكثر من ، اللهم على القلب ، !

وقد كان لابد من هذه اللوحة التاريخية ، أو الاجتماعية ، للتمهيد بها في بسط العوامل التي ساعدت على تحقيق الرغبة في نفي البطريرك ، تلك الرغبة التي التمسها بطرس باشا من الجناح الخديوي ، وشايعه فيها جميع أعضاء المجلس الملي ، ولم يخالفه فيها أو يعارضه أحد سواي أنا . وهكذا تغلبت الاغلبية ، ولكنى بقيت وحيدى على معارضى لها ...

ولقد توسلوا لتحقيق ذلك ، بأن رفعوا بها عريضة باسم المجلس الملي ، التمسوا فيها من سمو الخديوي نفي السيد البطريرك ، وزميله مطران الاسكندرية للأسباب التي ذكرناها آنفاً .. وحاولوا أن يعملوا على أن أوقع العريضة معهم فرفضت رفضاً باتاً ، على الرغم من أنهم حاولوا بوساطة المرحومين باسيلي باشا ، ومقار باشا ، أن يقتنعانى بوجاهة الاسباب التي يستندون إليها في هذا الطلب - ولقد بذلوا مساعى جملة لدى رئيس النظار بالنيابة المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا ، مستعينين بالمرحوم تجران باشا الذى كان صديقاً حميماً لبطرس باشا ، لتزكية ملتزمهم

لدى الجناب العالي الخديوى . وهكذا تضافرت هذه القوى مجتمعة فى إقناع سموه بصواب الطاب : فأصدر أمره بالموافقة عليه !!

كيف أرسل البطريك إلى منفاه ؟

وعقب ذلك أخذ البطريك وزميله بقوة عسكرية مسلحة : حتى أوصلوه إلى دير البراموس ، كما يؤخذ المحرمون ؛ ولكنه لم يبال بذلك بل كان طيلة رحلته مشرق الوجه : يداعب حراسة المدججين بالسلاح قائلاً فى وداعة : لماذا هذه الأسلحة ، وهذا الجند ، وأنا شيخ وأهن القوى ، لا قوة لى إلا بالله . والله يفعل ما يريد !! ثم يتسم ويعقب على ذلك قائلاً : ه الله كريم . يغفر للناس سيئاتهم !!

ولا تسل عما كان لهذا الحادث من أثر سىء : ووقع أليم فى نفوس أبناء الطائفة القبطية وسواهم : الذين كانوا يعتبرون البطريك زعيمهم الأكبر : ويقدمونه تقديساً يفوق حد الوصف : ويسجدون إجلالاً لمقامه الدينى العظيم : واحتراماً لإسمه الكريم ويعتبرونه خليفة لمارى مرقس الأنجيلي

ولقد قلت فى سياق هذا الحديث أن المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا — كان رئيساً للنظار بالنيابة — أما رئيس النظار : المرحوم مصطفى فهمى باشا : فقد كان يمضى أجازته الصيفية فى أوروبا فى الوقت الذى تم فيه نفي البطريك : فلما عاد إلى مصر : لم يرتح لما حدث : ولا م بشأنه نائبه فى منصب الرئاسة لوماً شديداً : وحمله مسئولية ما حدث — على أن الحوادث أتت إلى عقب ذلك سراعاً : فأقبلت الوزارة والفهمية ، وتولى الوزارة الرجل العظيم رياض باشا : فكان من باكورة أعماله الاهتمام بإعادة البطريك المنفى وزميله : وإعلان مخطئه الشديد على نفيه : إلى حد أن صرح الخديوى فى هذا الشأن بقوله :



المفقور له رياض باشا

— : ه إن أفدينا لا يملك نفي فرد من عامة الشعب : إلا بحكم القانون . فما الخيلة مع رئيس دينى جليل القدر : عظيم المقام يماثل (بابا روما) فى مركزه الخطير ؟ وكيف يمكن تبرير هذا العمل : لو التجأ البطريك إلى ساحة القضاء للأناصاف بما لحقه ، !! ولقد تأثر الجناب الخديوى : وأقر رياض باشا على رأيه : وألقى تبعه هذا الخطأ الذى حدث إلى من طلبوه والتمسوا منه الموافقة عليه — ثم ترك للمرحوم رياض باشا حرية العمل لإعادة البطريك من منفاه معزراً مكرماً !

عودة البطريك واستقباله العظيم

وكان رياض باشا عظيم الثقة بى : وبالنظر لما يعلبه من عدم رضائى عن نفي البطريك : استدعانى واستطلع رأيى عن خير الوسائل التى يمكن أن يكون فيها أعظم ترضية للبطريك : بحيث يعود موفور الكرامة : مرفوع الرأس ...

وهنا عرضت عليه : بأن خير ترضية ينالها غبطة البطيريك عما لحقه من أساءة أن تلتبس الهيئة التي طلبت نفيه : من الحكومة العمل على إرجاعه : فيكون في ذلك أصدق إقرار منها ببطلان عملها . . .

ثم على الحكومة عند وصوله إلى محطة العاصحة : أن تعد له استقبالا رسمياً يشترك فيه كبار الموظفين : وعلية القوم : مع ثلة عسكرية تؤدي له التحية اللائقة بمقامه — ثم يستقبله سمر الخديوى : ويقبله بيده الكريمة الوشاح المجيدى الأكبر : دلالة رضاه السامى

ولقد سر رياض باشا بهذا الاقتراح : فأقره : وبادر بتنفيذه — وهكذا كانت عودة السيد البطيريك من الأيام السعيدة بل عيداً عظيماً من أبهج أعياد الأمة المصرية جمعا !

عفا الله عما سلف !

والطريف بعد ذلك أن المرحوم بطرس غالى باشا طلب منى أن أرجو السيد البطيريك فى أن يزور ابنائه من الذين كانوا مختلفين معه : علامة صفحه عنهم : وبرهانا منه لتناسيه لأساءتهم : فلبيت طلبه : وتفضل غبطة البطيريك — وكانت محبته لى عظيمة : وتقديره لعواطفى نحوه تملأه ثقة بى — إلى أجابنى لما طلبته منه : وتفضل فدعانى لمرافقته أثناء زيارته لهم ، ومنهم بطرس باشا نفسه — وكان يوما مشهودا تجلى فيه الوثام التام والسرور العام لاستتباب الوثام بين غبطة البطيريك وأبنائه !!

إلغاء المجلس الملى

ولما هدأت الأمور : تم الاتفاق على إلغاء المجلس الملى الذى كان سببا فى نفي السيد البطيريك — ولو إلغاء مؤقتا — على أن تقوم مقامه : لجنة مالية تتألف من أربعة من البارزين : لمباشرة أعماله : وقد وقع الاختيار على وعلى المرحومين حنا بك باخوم ووهبه بك شلبي وبطرس بك يوسف — وبقينا نمارس أعمالنا بالاتفاق مع غبطة البطيريك أكثر من عشر سنوات : من غير أن يقع بيننا وبين غبطة البطيريك الذى كان يرأس جلسات اللجنة أى خلاف فى شأن من الشؤون : جل أو هان !!

ولقد ذهب غبطته فى التسامح معنا إلى حد أن أقرنا على ما طلبناه من تأليف مجالس فرعية مالية فى الأقاليم وهى التى لا يزال معمولاً بها الى اليوم : تؤدي أعمالها على خير الوجوه !!

نشوب الخلاف من جديد

وظلت الأحوال سائرة فى هدوء وسكينة ، إلى أن نهض فريق من الأقباط ، ممن لا يهنا لهم بال فى ظل السلام فسمعوا لدى السلطات الحكومية ، للعمل على إيجاد مجلس ملى ينتخب ليحل محل المجلس المنحل . وبالفعل أُجيب مطالبهم . وأجريت الانتخابات ، فأخذ الأعضاء الجدد ، فى التشايع والتعالى أزاء هذا البطيريك الورع المتواضع ، والقديس الطاهر الانبا كيرلس ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت صدره يضيق بتصرفاتهم ، ونفسه العالية لاتحتمل غرورهم ، فإكان منه الا ان أمر بطردهم ، والخيولة بينهم وبين دخولهم الديوان الذى كانوا يجتمعون فيه — وبذلك ظلت الطائفة القبطية محرومة لفترة طويلة من المجالس المالية !!

ومن هذه العبارة القصيرة تتضح كيف كان التواضع مقروناً بعظمة النفس، والافتة، والكبرياء، ابرز صفاته، مع التواضع والمحرص على الكرامة النفسية !!

انشاء وزارة الاوقاف

وفي عهد الخديوى عباس عمت الشكوى وتعالى الاصوات بالاحتجاج على مظاهر الفوضى التى أغرقت ادارة الاوقاف العمومية . فلأجل وضع حد لعبث العابثين بها ، وتلافياً لأوجه النقص الكثيرة التى ظهرت للجميع ، صدرت أوامر اللورد كيتشنر بتأليف نظارة يعهد اليها القيام بأدارة الاوقاف ، حتى تصان حقوق المستحقين ، برقابة الحكومة لها واشرافها عليها — وفى نفس الوقت رؤى انشاء وزارة للزراعة ، لأن الزراعة هى عماد الثروة الأساسية ، فى الاقتصاد القومى المصرى .. وفعلًا انشئت الوزارتان فى وقت واحد ... واتى اذكر انه لما عرضت هاتان المسألتان لأقرار ميزانيتهما ، مرت بغير معارضة ميزانية وزارة الزراعة ، اما ميزانية وزارة الاوقاف فقد لقيت معارضة شديدة ، اذ وقف المغفور له الزعيم المشهور سعد زغلول باشا ، وطالب بإبقائها ادارة كماهى — ولما كنت رئيساً للجنة المالية بالجمعية التشريعية ، فقد كان لا بد لى من الأدلاء برأى فقلت :

— إني ليؤسفى أشد الأسف ، أن أسمع هذا الاعتراض من الزميل المحترم سعد زغلول باشا ، وهو أعلم الناس بمدى ما تطرق الى ادارة الاوقاف من ألوان المفاسد ، وضياع حقوق الناس . بما يحدث فيها من التلاعب فى ايراداتها ، مخالفة لشروط الواقفين ... والآن ، وقد أراد الله أن تنهص بأقرار عمل ، من شأنه صيانة أموال الناس وإقامة موازين العدالة ، ينهض سعد باشا مطالباً بالدعوة الى أبقاء المظالم التى ضج منها الناس بالشكوى !!

وإن هذه النظارة حين تدشا فى مصر ، سوف تؤدى للعالمين خدمات جللى .. والواجب الانسانى يقتضى كل فرد منا أن ينافح عنها ، ويعارض من يطالب بإزالتها . وأعتقد أن حضرات زملائى الموقرين أعضاء الجمعية سوف يقولون هذا الرأى .

ولقد قبل ذلك فعلاً بالموافقة الإجماعية ، وحدث أن قابلنى سعد باشا بعد ارفضااض الجلسة فبادرنى قائلاً : « لقد كسبت القضية يا قلىنى باشا ، .. فأجبتة على الفور قائلاً : « إني على يقين يا باشا أن ضميرك مرتاح لذلك ، !! فأبتم — رحمه الله — وقال وهو يهز رأسه : « الله الموفق ، !! »

عوائد على جيش الاحتلال الانجليزى

ومن الأمور التى حدثت فى ذلك العهد ، أن المستر متشل أنس ، وكيل نظارة المالية ، استدعانى ذات يوم وبادرنى بالسؤال عن سبب تحصيل عوائد الدخوليات عن « جيش الاحتلال الانجليزى » ، ومعاافة الجيش المصرى منها ... فأجبتة بأننى فى ذلك العمل ، أسير بمقتضى الأوامر والقوانين ، ولدى مرسوم خديوى بذلك .. قال أود معاافة جيش الاحتلال ، قلت : عليك بأستصدار مرسوم بذلك ... فقال لى : « إن كلامى يكنى ، واوامرى تنفذ ما ننشده من طلبات ، !! فأجبتة : « وهل كلامك يعتبر قانوناً ؟ » قال : « إذن نحن غير متفقين فى الرأى ، ! قلت : « طبعاً ! لأنه لا يرضيك أن اخالف القوانين ! بل أنا حريص على التمسك باهدابها ! »

ولقد اغضب هذا الحديث المستر « متشل أنس » ، وكتب تقريراً بما حدث للسير غورست الذى كان آنئذ مستشاراً للمالية ... فضحك منه كثيراً وعلق عليه قائلاً : « الحق مع قلبنى باشا ، ! ثم استدعانى وسألنى قائلاً :



« لماذا أغضبت متشل ، ؟ قلت : « إنه يطالبنى بمخالفة القوانين .
« انا بحكم مناصبى الحارس الأمين عليها ، ! قال : « نعم رأيك هو الصواب ، !

ثم أستدرك يقول : « وايمكن ما رأيك فى أننا نريد حلاً للمسألة .
من غير الاتجاه الى استصدار مرسوم ، ! فأجبت : « يمكن إيجاد طريقة . تدفع بموجبها الحكومة لجيش الاحتلال مبلغاً سنوياً كأعانة ... وعلى جيش الاحتلال أن يتنازل عنها للحكومة فى نظير معافاته من عوائد الدخوليات .. ويكفى لتنفيذ ذلك اصدار قرار وزارى به ، وفعلنا تم ذلك ، وعمل به ...

استبدال السكيل بالوزن !

وكانت طائفة السكيليين فى ذلك الوقت تفتال اموال البائع والشارى . عند ما يلجآن اليهم فى الوساطة بينهما .. فوجدت أن خير ضمان لاستيفاء حقوقهما . واقامة العدل بينهما . أن أعمل على استبدال السكيل بالوزن بعد اجراء معادلات دقيقة ، وتقدمت الى مجلس شورى القوانين بالامر فاقرنى عليه . ولما كان السكيليين . وهم جمهور كبير جأروا بالشكوى من الخيف الذى نالهم من جراء هذا العمل .. فلما عمل على مرضاتهم رأيت أن اعهد اليهم بمهمة نقل الغلال من المراكب الى الساحل ، ووضعها على الموازين لقاء أجر معين يعادل الاجر الذى كانوا يتقاضونه على السكيل . وبذلك كفوا عن الشكوى ، وانتظمت الاعمال ، وضمنت العدالة ...

والظاهر أن هذا العمل ، عز على المستر « متشل أنس » . الذى قلت أنه كان يميل للشر - فرجع تقريراً ضدى نال فيه من عملى ، إلى اللورد كرومر قال فيه : « أنى رجل أصبح يخشى منه . لآنى أستطعت أن أستميل طائفة السكيليين - وهم المشهورون بعنادهم . ومخالفتهم الاوامر الحكومية . بمجرد عمل بسيط ، !
ولقد استدعاه اللورد كرومر - وكان رجلاً حكماً بعيد النظر - وقال له : « ما أعجب تصرفك ! بدلاً من أن تشكر موظفاً على حسن سياسته فى اخضاع الفن . تهجم عليه فى تقريرك الذى يدل على قصر النظر . وقلة الحيلة ، !
وكانت النتيجة انى تلقيت خطاب شكر رسمى على هذا العمل العظيم !

مخالفة أمر الوزير

ومن الحوادث الطريفة التى وقعت لى فى ذلك العهد . عند ما كنت مراقباً عاماً للأموال الغير مقررة ومديراً للدخوليات - أن تولى المغفور له بطرس غالى باشا نظارة المالية . فى ذات يوم استدعانى وقال لى : « توجد عندك بالمصلحة وظيفة - خالية برتب « ٤ جنيتها فى الشهر وأحب أن تعين فيها « نقولاً البلدى ، ! ؟ فقلت له جيباً : « سوف أنظر فى الامر إن شاء الله ، !

فقال في شيء من الغضب : « تنظر في الأمر ... ؟ وهل استدعيتك لكي استشيرك؟ إنما أنا استدعيتك لأصدر اليك الأمر بتعيينه ، !! فأجبت على الفور : « مادام الأمر كذلك ، فلن يمكنني تعيينه ، !! »
عندئذ غضب الوزير ، وقال وهو يتميز غيظاً : « إذن نحن ذير متفقين ، فأجبت : « نعم ... وهو كذلك ، ! »
فما كان منه بعد هذا ، إلا أن سعى للتخلص مني . فرفع الأمر لوكيل المالية ، وكان أيامئذ السير غورست ، وكان وزراء ذلك العهد يستخدمون نفوذ الموظفين الانجليز في الحكومة المصرية لتنفيذ مآربهم . . فأستدعاني السير غورست وسألني عن السبب الذي من أجله خالفت أمر وزيرى القضاة بتعيين شخص يريد ، فأجبت : « أنتى خالفت أمرى في سبيل المصلحة العامة ، وأرجو أن اكرر أمامكم بأى ابن أعين الشخص الذى ذكره بالذات ، ! »
قلت ، ولأجل أن تتيقنوا وجه المصلحة في هذا الرفض ، أرجوا أن تخاطبوا فى شأنه جناب « سيتل باشا »
بنظرة الحريية . فخطاب مرمى للاستفسار عن ملف خدمته . عند ما كان يعمل تحت رئاسته . وانى مؤمن بأن في ذلك جسم النزاع . وفصل الخطاب ... !

وبالفعل كتب « السير غورست » بما طلبه ، فجاء الرد من « سيتل باشا » قاطعاً بعدم تعيين هذا الشخص في أية وظيفة حكومية . لأن سلوكه وأخلاقه لا تتفق مع كرامة الموظفين الجديرين بالأحترام !!

فلما تلقى السير غورست ذلك ، استدعاني . وهنأني على موقعي ، قائلاً : « إن حرصك على حسن نظام العمل جعلك تكاد تضحي بشخصك وأنى اهنتك ، لأنك كنت شجاعاً في الحق . وشريفاً في الخصومة ، وسوف أتكلم مع الوزير بما يلزم ... »
وأنتهت المسألة عند هذا الأمر ...

حفلة ساهرة رسمية

ومن الحوادث التي وقعت في ذلك العهد وكان لها في أبنان حدوثها دوى في دوائر الحكومة . حادث نه من الدلائل اجمة في الاعتداد بالنفس والاستقلال في الرأي ، والألفة والآباء . ومعد في العزة والكرامة ما نورد فيه يلي كما حدث .

عند ما تولى المرحوم بطرس غالى باشا منصب وزارة الخارجية ، زين له بعض المقربين إليه إحياء حفلة راقصة بمنزله يدعو إليها رجال السلك السياسي والعظماء والوزراء وبعض الأصدقاء . وكان الضيوف الكهربياني في ذلك الوقت لم يعم العاشمة أو ينشر



(المؤلف) فتيلى باشا

فيها . فأشار عليه البعض أنه لكي تستكمل الحفلة التي يقيمها وسائل بهجتها وأسباب فخمتها ، يجب أن تضام بنور الكهرياء . وبما أنه يوجد دار الضرب بخانة المصرية - أصك النقود - « وابور » لتوليد الكهرياء يستطيع إذا أحضره أن يسد هذا النقص ويؤدي هذه المهمة ولما كانت الضرب بخانة تتبع المصلحة التي أديرها أبا بالمالية ، فقد كان تحقيقها عسيراً

فانبرى المرحوم حنا بك باخوم وكان وقتئذ موظفاً بوزارة الحفانية ، وقال أنه في إمكانه تذليل هذه العقبة اعتقاداً منه بأن صداقته لمدير الضربخانة ، أحمد بك أسعد ، تكفل له الحصول على ، وابور ، الكهرباء بغير على فعمد بطرس باشا إليه بإتمام هذا الأمر وفعلًا توجه حنا بك الى أسعد بك وطلب منه تنفيذ هذه المهمة . فلم يسع أسعد إلا رفضها قائلاً :

— . أنه ليس في استطاعتي أن أنصرف في شيء على الإطلاق بدون تلقى أوامر رئيسي قليني باشا بصفته المدير العام التابعة له هذه المصلحة . فاستأذنه فان قبل قلياًمرنى وأنا أطيع وأنفذ .. ،

حين ذاك لم يجد حنا بك باخوم مناصاً من أن يطلب إليه الاستئذان بمعرفته وعلى هذا تحدث إلى تلفونياً وبسط لى تفاصيل مدار بينهما من الحديث ، وطلب منى أن أمره بما يجب عمله . فأجبه بأن مثل هذه الأحوال لا يمكن أن أنصرف فيها بالتليفون ، وطلبت إليه أن يرسل إلى خطاباً بما جرى بينهما وأنا أنصرف فيه بما يقتضيه الأمر .. ولكنى لا أخفى القارىء . غضبت لهذا التصرف غضباً شديداً .

ومن الطبع أنى ادهشت وبلغ من التأثير مبلغاً كبيراً لتدخل موظفين خارجين عن دائرة وزارة المالية ، في شئون مصلحة أديرها . ولا يمتون إليها بصله من صلات العمل ، وأعتبرت أن ذلك التدخل لونا من التحدى والاستهانة بالحقوق . فضلاً عما ينجم عنه من اضطراب الأعمال والاخلال بالنظام وعلى هذا ماكدت أتلقى خطاب مدير الضربخانة ، حتى عرضة على جناب المستر دوكنس الذى كان وقتئذ يشغل منصب وكيل وزارة المالية ، وقلت له إن هذا التصرف يوجب الفوضى في سير الأعمال ، وبث روح التمرد والنزوع إلى العصيان وعدم الامتثال لأوامر الرؤساء . وبناء على هذا الحديث تم الاتفاق بيننا على تقديم حنا بك باخوم إلى مجلس التأديب وأستقر الرأى على الكتابة لبطرس باشا منبهينه إلى مافى هذا التصرف من الاخلال بسير الأعمال مما لا يصح العودة إليه في مستقبل الأيام .

ولقد أحدث هذا القرار ضجة هائلة في الدوائر الحكومية . حتى أن المرحوم ابراهيم باشا فؤاد المناسترلى وزير الحفانية في وقتها : زارنى في مكنتى ، ورجانى أن أعمل بكل ما وسعنى الجهد على صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم . بسبب هذه المسألة . وبعد أخذ ورد ، ورجاء وشفاعات . قبلت ذلك مراعاة له : على شرط أن يقبل وكيل المالية بذلك أولاً . فقال لى المناسترلى باشا أنه قابله قبل أن يقابلنى ورجاء نفس هذا الرجاء . فأحال الأمر على قائلاً أنه متملق بى ، فاذا قبلت فلا أعترض منه على قبولى . وحينئذ توجهت لمقابلة المستر دوكنس وقلت له . انى مراعاة لخطر وزير الحفانية ، لا أرى مانعاً من صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم .. فوافق على ذلك ، وقال معقبا على موافقته . اننى أعتقد بعد ما أخذ هذا الأمر كل هذه الأهمية ، وما حدث حوله من الضجة في الدوائر الحكومية . أنه لن يتجاسر بعد الان أحد من الموظفين . صغيراً كان أم كبيراً . على التدخل في شئون غيره .. وبذلك أسدل الستار على هذا الحادث !! ..

حرية الرأى

كذلك أذكر الحادث الآتى ومنه يتبين المعنى الصحيح لتقديس حرية الرأى :
كان لطيف بك سليم مديراً للفيوم في عهد الاحتلال الانكليزى . وكان أحد الذين تشبعت نفوسهم بالوطنية

عهد المستشارين الاجانب !

وبعد الاحتلال الانجليزى أصبح يوجد فى كل نظارة مستشار منهم ، للأشراف على سير الأحوال - وكان المستشار المالى على وجه التحديد ، معدوداً فى النفوذ والسلطة ، الرجل الثانى بعد العميد البريطانى .. وكان لنظار مصر العظام معهم مواقف مشهودة ، فى بعض المسائل تدل على ما كانوا يمتازون به من الأنفة ، والعزة الوطنية ، والكرامة الانسانية

أملايس صيد ؟

حدث ذات يوم أن كان رياض باشا بنظارة المالية : فى غرفته ، فدخل عليه المستشار المالى ، وكان يلبس ملابس بيضاء ، وحزاماً أحمر ، فلم يرض دولته هذا المنظر لموظف مصرى ... فنظر إليه فى شيء من الدهشة وسأله : هل جنابك قادم من الصيد ؟ .. فأجابه : لماذا يا دولة الباشا ؟ فأشار إلى ملابسه وقال : لأن هذه الملابس ليست ملابس مصالح ؟ بل هى أعدت للصيد ! فغجل المستشار وفهم قصده .. وفي الحال عاد إلى منزله ، وغير ملابسه ، ووضع طربوشاً على رأسه ، ورجع إلى الديوان واستأذن فى الدخول على رياض باشا .. الذى ما كاد يراه حتى ضحك فى وجهه وقال : نعم ! .. هذه هى ملابس النظارة يا جناب المستشار !!

لا يفرط فى حقه !

حدث مرة أن دخل السيد غورست عند ما كان مراقباً للأموال المقررة بالمالية على رياض باشا لعرض بعض الاوراق .. وكان من ضمنها عريضة وردت إليه بالتظلم فى أمر . فقال : لقد وردت لى هذه العريضة ، فأشرت عليها بكذا وكذا - ولكن قبل أن أرسل الاوراق إلى جهة اختصاصها أردت أن أعرضها عليكم . لارى هل تتفق فى رأى .. فقال له رياض باشا : اعطنى العريضة . ثم أخذها ومزقها أرباً أرباً ... ووجه اليه كلامه قائلاً : أسمع . لا وجه لتقديم التظلمات إلا للوزير فقط .. والا فهل عينت انت وزيراً آخر لابت فى هذه الامور ! وهنا سكت غورست مع ما كان معروفاً عنه من الأنفة والكبرياء ، وغنم من السلامة بالصمت ، وخرج بالصمت عن لا .. ونعم !

وبعد ذلك أصدر رياض باشا منشوراً ، بأن كل الشكاوى لا ترفع إلا للوزير مباشرة . دون سواء ، وإلا لن ينظر إليها ...

الاعتداد بالنفس !

واذكر من مواقف مع النظار أنفسهم ، ما يمثل مواقف مع الانجليز ، فى الاعتداد بنفسه ، من ذلك موقفه مع اللورد كرومر فى تعيين المستر سكوت ، مستشاراً للحقانية ، وما كان له مع الخديوى ، مما نمر عليه من الكرام .. ثم موقفه مع المرحوم نغرى باشا حين أصدر منشوراً موقفاً بامضائه بناء على تعليقات صدرت إليه من المستشار الانجليزى المذكور ، فانه بمجرد اطلاعه عليه دعاه اليه وسأله : هل كنتم فى غيبوبة ساعة أصدرتم هذا المنشور ؟ أراد نغرى باشا الاعتذار عنه ، والتخلص من تبعته ... لم يقبل اعتذاره ، وخيره بأن يغيره بآخر (أعطاه

قلت :

— إذن يجب الأذعان لما نراه كما هو الواجب ...

وهنا أخذت آراؤنا تناسب الى طريقها الطبيعي لتوضع في نصابها الصحيح . ولتاخذ مكانها من الاعتبار ، وأخذ رئيس المجلس يحترم أقوال هيئة المجلس ويحل آرائهم محلها المختار من الوقار !

ومن غرائب الصدف بعد هذا الحديث . أن قابل المرحوم المسيور وكاسيرا الذي كان مديراً لقسم قضايا المالية وعضو الهيئة التأديبية أحد الوزراء وقال له :

— اليوم حدثت مشادة عنيفة بين قليني بك واللورد ملتر في أثناء انعقاد المجلس وأنا اعتقد أن هذا الأمر يقضى الى خروج قليني بك من خدمة الحكومة . فلما تقابلت مع هذا الوزير واستوضحني جلية الأمر ، شرحت له تفاصيل ما حدث وعقبت على ذلك بقولي :

— إنني فعلت ما فعلت مدفوعاً بما خوله لي القانون من الحقوق ولست أبالي الوظيفة ما دمت فخور الضمير ، بما أدت من الواجبات . . . !

وسارت مراحل التحقيق أشواطاً . حتى أشرفت على نهايتها . فكنت أنا والمسيور وكاسيرا العضوين الوحيدين المقتنعين ببراءة مدير المصلحة بما نسب اليه . وأعلنا هذا الرأي . ولكن باقي الأعضاء شابعوا رئيس المجلس فيما يراه وقرروا بإدائته . وذلك بإيقافه عن العمل ثلاثة أشهر بدون مرتب

ولما كان قرار المجلس لا ينفذ إلا اذا صدق الوزير عليه فقد رفع اليه توطئة للتصديق عليه . ولكن الوزير رفض التصديق عليه قائلاً :

— لا بد لي أن أسمع آراء كل عضو في المجلس

وفلما استدعانا جميعاً . وسمع أقوالنا . فلم يجد ما يبرر هذا الحكم فقال :

— انني غير مقتنع للآن بصواب هذا الحكم ولا بد للمسألة من إحالتها على المجلس المخصوص

وقال : ولو اني أخرجت من المجلس المخصوص اللورد ملتر فاني واثق من أن ليجريل رئيسه سيصدق على

الحكم ولكنني قد قتت بالواجب وارضيت ذمتي ...

وعلى ذلك قد أمرت بعزل اللورد ملتر من المجلس المخصوص لأنه لا يصلح أن يكون رئيس المجلس الاستثنائي . فلما حول الأمر الى المجلس المخصوص الذي كان يرأسه المسيور ليجريل الذي كان وقتها يشغل منصب النائب العام صدق على الحكم الذي أصدره مجلس التأديب القاضي بإيقاف هذا المدير ثلاثة أشهر بدون مرتب ونقله الى وزارة أخرى .

ولما انتهت المسألة عند هذا الحد ، تقابل معي اللورد ملتر . وخاطبني قائلاً : انك قد كبرت في نظري ، لموقفك المشرف . فقلت له جواباً على ذلك :

— اني فعلت ما فعلت لأنني أعرف مع من أتكلم ، وصفاته في العدالة والإنصاف مشهورة

فضحك اللورد ملتر ملء شديقه ، وقال وقد شاع السرور على أساريه :

— أؤكد لك اني لم أقدر شخصاً من أعضاء الهيئة تقديري لك . وقد كبرت في نظري . وأنت في موقف

المعارض لي . وتجلت لي في شخصك ، ما كنت أعتقد فيك .. ومد إلى يده ، وهو يصالحني بحرارة ، قائلاً في تأثر عميق .

— نحن أصدقاء !!

تلاعب الكبار بالصغار!

كان يتبع مصلحة الأموال الغير مقررة التي كنت اديرها جملة مصالح أخرى ، منها ، مصلحة الدخوليات ، كما ذكرت - الفأ وهي التي كان يوكل اليها جباية الضرائب عن كل ما يدخل مدينة القاهرة من البضائع وكان في هذه المصلحة عدد كبير من الموظفين . وكان يوجد بها ١٨٠ مكتب تليفون . و ٤٠ مكتب لتحصيل الضرائب في دائرة المدينة . كما يتبعها ، كردون ، يحرس أطراف المدينة وضواحيها مكون من ١٢٠٠ ملاحظ لهم زى رسمى . فضلا عن عدد عظيم من الكتاب والصيارف عدا المأمورين والمفتشين والمعاونين ونحو ذلك .

وقد حدث إن أحد المفتشين ، وكان يدعى ، مصطفى أفندى حسن ، وكان من خيرة موظفى المصلحة ، وأنشطهم عملا ، وأكثرهم كفاية ، تقدم إلى يوماً ، ورجاني أن اساعده وأسدى اليه مكرمة ، وذلك بتوظيف شخص ادعى أنه من أقربائه ، ولو في وظيفة قباني بسيط ، فلم أر بأسا في أن أستجيب لرجائه ، معاونة منى له . وفعلنا أمرت باشكاتب المصلحة أو مدير المستخدمين بتعيينه بمرتبة ثلاثة جنيهات في الشهر

ومرت فترة من الزمن على هذا الامر ، إلى أن وفد إلى الوزارة في ذات يوم شيخ كهل طاعن في السن ، على وجهه سيمات المهابة والوقار ، بلحية بيضاء غزيرة الشعر ، يلبس ، الجبة والقفطان ، وعلى رأسه طربوش . وكوفية ، من الحرير وطلب من الحاجب أن يستأذن في الدخول الى ، فأمرت له بذلك . ولما مثل بين يدي ، أمرته بالجلوس ، وأنا أشير إلى أحد المقاعد . فقال لا يصح أن أجلس في حضرتك - قلت اجلس ، وأعلم أن الطاعة خير من الادب ... فلما أستوى في مقعده ، سألته من أنت ؟ فأجابني - أنا ياسيدى كنت رئيساً للطهاة بالقصر العالى (قصر والده الخديوى العظيم اسماعيل) ولم أرزق في حياتى الا بفتاة واحدة . فما كان من مصطفى أفندى حسن المفتش الا أن أستهوها ، وأفسد عليها حياة الطهر والعفاف ، وأستجلب لها زوجاً صورياً من الطريق . ليتخذها ستاراً يخبئ وراءه لقضاء مآربه الخسيسة - ومن بواعث الغرابة أنه التمس من سعادتكم تعيينه في وظيفة قباني ، ارضاه له - وكان في كل مساء يحجى حفلات ساهرة ، يحضرها بعض أصدقائه ، فيظلوا طيلة ليلهم يرقصون ويسمرون ، ويمرحون كؤوس الخمر ، ... وظلت الحال سائرة على هذه الوتيرة ، بغير أن يتصل بعلى شىء مع مساه بشرى ، ومع ما يلحقنى من العار من جرائه ، نظراً لما هو عليه من الشرور التي أغرق في أمواجها المصطنخة حياة ابنتى الطائشة فسألته ومن أين علمت بذلك ، هل أخبرتك أبنتك به ، فأجاب نعم هي التي أخبرتني بكل شىء ... وهنا أستحضرت الفتاة وسألها عما يقوله والدها ، فاعترفت أمامى بكل شىء ، من غير زيادة ولا نقصان . فأمرتهما بالانتظار ، وأستحضرت زوجها الصورى ، القباني ، فلما حضر سألته هل يعرف هذه السيدة ؟ (مشيراً إلى زوجته الصورية) ؟ فقال . لا ياسيدى فقلت له : اذن كيف تزوجت بها ... اليست زوجتك ؟ فاجاب آه لقد زوجوني بها من غير أن أراها !! ... فقلت له : حضرتك عامل « برفان » برضاك !! ثم أستحضرت مأذونا وأمرته بأن يكتب وثيقة الطلاق في الحال وأمرت بطرده من وظيفته ، وسلمت الفتاة لآبيهما وقلت : يا عم خذ أبنتك وأذهب لحال سيالك ، وأسهر على مراقبتها ...

ومن لطائف ما حدث قبيل مغادرة الرجل وابنته لفرقتى ، أن التفتت إلى وفي نظرة استعطاف وتوسيل . ولهجة رجاء وتذلل قالت لى :

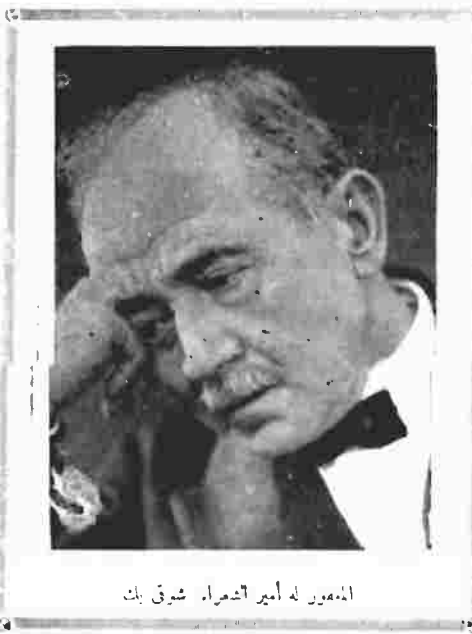
- أرجوك بإسعادة الباشا وحياة رأسك أن لا تؤذى مصطفى أفندى ، !

وعقدت بعد ذلك مجلس التأديب في الحال . وتوليت بنفسى رئاسته وقررت محاكمة هذا الموظف ، وذلك بانزال مرتبه من ٢٤ جنيه الى ١٢ جنيه . وبذلك وضعنا العدالة في نصابها . واقتصصنا من هذا المذنب الوضع !
خصومي يعملون على عدم تعييني في الجمعية التشريعية ؟

ومن حوادث ذلك العهد أيضاً . أنه عند ما استقر الرأي على إنشاء الجمعية التشريعية . أخذت الحكومة في اختيار أعضائها من بين عظماء الأمة . وأعيان البلاد . ولقد وقع الاختيار على لا كورت من أعضائها . وأدرج بذلك اسمي في كشف الأعضاء . . ولكن بعضهم - ممن يملأ الحسد نفوسهم - أراد محاربة لي . العمل على استبعاد اسمي . ليحل على أحد الأشخاص الذين يتمتعون بحماية أجنبية ، وكان هو الآخر . قد استعان على تحقيق هذا الأمل . ببعض أصحاب النفوذ في الحكومة !

فلما علمت بما يدور في الخفاء . وما بيته لي خصومي . ووفقت من بعض أصدقائي في الحكومة بما يرومون تنفيذه . قصدت على الفور إلى جناب اللورد كتشتر - وهو الذي أشترك مع سمو الخديوي في اختيار الأعضاء وأخبرته بحلتي السر في المسألة . فأبدى جنابه أسفه الشديد لما يحدث ، وطلب في الحال رئيس الحكومة تليفونيا ، وتحدث إليه في الأمر . - وكنت جالسا بجواره ساعة الحديث وقال له :

- أنه لن يقبل في الجمعية التشريعية أشخاصاً مهما كانوا . تحت أخريات الأجنبية . . وأن قلبي بأشأ . لا يمكن أن يحل محله أنسان آخر على الإطلاق . . فكان جواب رئيس الحكومة بالموافقة والتأمين على كلام اللورد ! !



الدمور له أمير الشعراء شوقي بك

وبعد انتهاء الحديث خاطبني قائلاً : ثق يا باشا أنك باق في مكانك ، ولا تهتم بكل ما تسمع عنه من الدسائس التي تبيت في الخفاء ، !

وفي اليوم التالي توجهت لرئاسة النظام . في عمل ما . . فلما علم الرئيس بحضورى طلب أن يراني . واستدعاني لمقابلته . فلما دخلت عليه في مكتبه بادرني قائلاً : - من أخبر الله . د كتشتر بحكامة فلان . وحكامةك ؟ فأجبت بهدوء :

- أنا . . . وكل ما يتصل به من هذه الناحية . سيكون المبلغ له أنا . . . ؟ فأبتسم وقال :

- لا تخش شيئاً ما دام الامر كذلك . وكن واثقاً أنه لا يمكن لأحد أن يزعمك من مكانك . لأنه لا يمكن لأحد أن يملأ فراغك ! !

وبعد أيام صدر المرسوم بتشكيل الجمعية التشريعية . وكنت من أعضائها . وانتخبت رئيساً للجنة المالية فيها .

رتبة روملى بلر بك

ومن المسائل المعروفة في ذلك الوقت أنه لما توفي المرحوم بطرس غالى باشا استقر رأى سمو الخديوي مع اللورد ، أن أخلف بطرس باشا في منصب وزارة المالية ، وفعلوا بعث سموه بوفد من رجال السراى لتهنئتي وكان

على رأسه المرحومون الشيخ يوسف صاحب المأويده - وأحمد شوقي بك أمير الشعراء - وإسماعيل أباطه باشا. كما أرسل اللورد في ذات الوقت أحد موظفي دار العبارة البريطانية، لغرض نفسه

حدث كل ذلك بغير مسعى مني، ولا عذري به - فقد رت هذه الثقة العالية تقديراً عظيماً، قابلتها بالشكر والثناء. ولكن ذلك لم يرف في نظير رئيس النظار، فعمل جهد المستطاع لعدم نجاح الأمر... إذ أدخل في روع اللورد كتشير باي، رجل الخديوي وصنيعته، كما أنهم سمعوا الخديوي باي، رجل الانجليز وصديق كتشير، وليكي يجعل الكلامه هذا بعض الوجاهة فانه قل إلى لا أنكر أنه أقدر اللاتقين لهذا المنصب وأعظمهم نفوذاً، وأكثرم جدار وكفاية، لولا هذه الميول - فكان ذلك موجبا لالتقياد الجهتين أفكرته، وصرف النظر عن إتمام هذا الوعد، ولكن بالنظر إلى ارتباط الجهتين بالوعد، لاسيما بعد ازجاء التهنئة لي مقدماً فقد رؤى الانعام على برتبة « روملى بلربك » - وهي أرفع رتبة في الحكومة المصرية، وكانت لا تعطى إلا لأكبار الوزراء :

كيف احتفلنا بأول عيد جلوس للخديوي (١)

لم يكن مألوقاً في مصر، إلى عام ١٨٩٥، أن يحتفل بعيد الجلوس تمجيذاً لذكرى اليوم الذي تربع فيه على عرش البلاد، ولي الأمر فيها : أو « خديويها » - فكان ذلك اليوم العظيم : على كثرة ما يتسم به من المزايا، وعلى وفرة ما يتفرد به من الصفات الرفيعة، يمر في موكب الزمن، كغيره من الأيام العادية، مع ما كان، ولا يزال،



المصور له سمو الخديوي عباس حسن الثاني يتحدث مع المرافق (تلميذ باشا)

له من مقام سام في الأمم الأخرى ومع ما يرتبط به من عظيم الذكريات لدى الشعوب المعاصرة بقرميسها : لأنه يعتبر لديها بمثابة الصفحة الحديدة في حياتها : التي تلهم أبناءها الهداية في الرأي : وتسداد في التقدم العمراني، والتوفيق في الخطوات . . .

وكانت مصر حتى ذلك العهد، تعتبر على الرغم من الاحتلال الانجليزي الذي كان يحسم على صدرها ولا يتركها، وكان للباب العالي فيها، شبه، هيمنة قوية، لم تستطع أساليب المحتلين البريطانيين أن تستأصل جذورها، أو تمحو روحها المتبوءة في كل ناحية . . . ذلك لأن العلاقات التاريخية القديمة كانت توثق روابط الأخاء والمودة بين المصريين وأخوانهم الأتراك والفضل في ذلك كله يعود إلى ما كان، للخليفة، في الدولة العلية من منزلة رفيعة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . . .

وكانت مصر تجري على سنة مشاركة الأتراك في الاحتفال بأعياد جلوس سلاطينها الخلفاء، أما أن تحتفل هي بذكرى اليوم الذي تقعد فيه عرشها الخلد سيد البلاد وولي أمرها، فلم يكن ذلك معروفاً فيها . . . عندئذ فكرت أن تعمم مصر على الاحتفال بعيد جلوس الخديوي وعرضت هذا الرأي على صديق المغفور له

عبد القادر حلى باشا — وكان أيامها وزيراً للداخلية . فاستصوبه والفنا لجنة من بعض كبار الموظفين و لاعيان البارزين . تعمل على اقتباس هذه السنة الخيدة في الاحتفال بعيد جلوس الخديوى المصرى على غرار ما تحتفل استانبول بعيد جلوس السلاطين الأتراك . . حتى يغدو هذا اليوم السعيد في تاريخها . مهرجانا تتجلى فيه مظاهر ولاء الشعب بقائده الأعلى . وتتسابق فيه البلاد في ميدان المبرات والخيرات . التي تقيم باغداقها على الفقراء والمحتاجين . البرهان على صدق تعلقها بشخصه الكريم . وعلى خالص رغبتهما في أن يصيب فيه كل فرد من الشعب قطرة من البهجة .

ولقد قر الرأى في هذه اللجنة في سنة ١٨٩٥ على أن تحيي عيد جلوس الخديوى بإقامة حفلة باهرة في حديقة الأزبكية . فأقيمت في كل ناحية منها معالم الزينات . كما رفعت الأعلام وأضيئت الأنوار في الميادين العامة . ومصالح الحكومة والدور المجاورة لها . ودعيت جماهير الشعب للمشاركة في مباحج العيد وأفراحه . وكانت فرق الموسيقى المتعددة في كل مكان تصدح بنغماتها العذبة . — وفي الوقت نفسه أقيمت في دار الأوبرا حفلات غنائية باهرة . تبارى فيها مشاهير أهل الفن من المغنيين والمطربين كما مثلت إحدى فرق التمثيل رواية لطيفة مناسبة لل مقام ! وهكذا كان احتفال مصر بأول عيد للجلوس فيها منذ زهاء نصف قرن . فأذاعت في أفراده فضائل ولى الأمر فيها وترمت الجماهير بأغاني ولائها الذي تنطوى عليه للجالس على عرش البلاد !



سمو الأمير خليل محمد علي
(في الثياب العسكرية)

ولا غرو فقد كان ذلك اليوم من الايام المشهودة في تاريخ مصر اشترك في البهجة به الشعب بجميع طبقاته . وكان من ذلك المهد البعيد بشيراً سرور الأمة العام . ومن يومها جرت البلاد على الاحتفال بأعياد الجلوس السعيد الى الآن . وسرت في الأمة مسرى الاعياد القومية العظيمة حتى استكملت في عهد الفاروق الزاهر . أروع مظاهرها . بما يغمر البلاد من خيراتها ونفحاتها . بإشاعة البر لفقرائها المساكين . ومعونة الضعفاء والمساكين تيمناً بذكرى جلوسه السعيد على عرش القلوب !!

فضل سمو الأمير محمد علي في تأسيس جمعية الهلال الأحمر المصرى

وفي عهد سمو الخديوى عباس أنشئت طائفة من المؤسسات الخيرية العظيمة . الى جانب أعمال الاصلاحات الاجتماعية الجمّة التي نهضت في البلاد . وكان في طليعتها جمعية الهلال الأحمر ، التي كان أصحاب الفضل الاول في تأسيسها أمراء البيت المالك الكريم . وعلى رأسهم حضرة صاحب السمو المليك الأمير الجليل محمد علي ، ولى تهديد المملكة المصرية . الذي سارع عند ما نشبت الحرب الطرابلسية . وخاضت تركيا غمارها الى جانب اخواننا سكان برقة وطرابلس الغرب ضد ايطاليا المعتدية . الى دعوة المصريين الى معاونة اخوانهم المجاهدين . وارسال البعوث الطبية . والمساعدات المادية اليهم . . وكان من جراء دعوته المباركة ، أن انشئت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث . جمعية الهلال الأحمر المصرى ، التي لا ينكر أحد فضله الماثور عليها . ولا فضل اخوانه الآخرين من أمراء البيت المالك الامجاد . الذين تبادلوا رئاستها كالمغفور له الأمير عمر طوسون . وصاحب السمو

الأمير الجليل يوسف كمال - احل الله حياته الكريمة . وقد شرفني الجمعية بأختيارى وكيلها الى الآن .
وهذه المناسبة يطيب لى فى هذا المجال ، أن اتناول بالحديث هذه الشخصية الساحرة الممثلة فى صاحب
السمو الملكى الأمير محمد على . لأبين للجماهير بعض نواحيها الفريدة ، ومواهبها النادرة ، وصفاتها الممتازة ،



سمو الأمير محمد على

وما لها من أميال طيعية فى خدمة البلاد ، أجل الخدمات التى
ترفع شأنها . وتعالى قدرها . . . كى تكون خير النموذج . لكل
راغب فى الخير له بلاده . والذكر الخمينى ! حياة سموه قصيدة
عامرة بعمائم الأمور . مفعمة بحمائل الصفات ، والعظمة التى
يجدر بطلاب المجد احتذاء طرائقها . واستخدام أساليبها حتى
ينالوا رضى الناس وعجبهم أجمعين !

إن تميزات سموه الغراء . كالتيار الكهربائى الذى يرسل
أشعته الى جميع العقول والقلوب والنفوس ، فتجذبها اليها .
حتى خلقت لصاحبها النبيل ، وأمه الكريمة ، حياة مجيدة فوق
الحياة ! حياة تزهر على تعاقب الأيام . بالفخر والخلود ، وتجعل
الأفئدة تبايعه بالولاء والحب ، حتى يلتقى أبد الدهر بازله !

ذلك لأن العظيم فى أمته . إنما يعتبر الحديث عنه عرضاً لما تتركز به حياته من جلائل الأعمال ، وحميد الفعال -
ومعه وتلك . هى أغزر مادة للأقلام . ومهوى أطلاع المولعين بالبحث والتاريخ !

وسمو الأمير محمد على ولى العهد ، يجمع الى رقة الشائل ، وداعة النفس . مع ما فيها من عزة محبة الى الناس ،
ورقة الطبع والتواضع مع مهابة وزاهة عن كل ما يشين . . . وذكاء متوقداً ، وعلماً واسعاً محيطاً بالعالم . وما حوى ،
وادباً فياضاً ومعرفة شاملة بدقائق الأحوال ، تنطق بيقظته الدائمة فى انتهاز الفرص ، واستخدامها فى كل ما يعلى
شأن بلاده . ويدفع عن قومه المظنات والريب !

ومن هنا جاء ولع سموه بتقريب العلماء والأدباء اليه ، ورعايته لهم ، وتشجيعه للوهوبين من الناس . ومؤازرته
لذوى الكفايات ، بمن ترفعهم بنصائح القيمة معارفهم النيرة الى سامى المقامات ورفيع المناصب !

وأبرز ما أشتهر به سموه ديمقراطيته الأصيلة ، وأخلاقه السمحة ، وتواضعه الجهم ، الى جانب طائفة من المفاخر
للعظيمة التى تنبئ . عن نضج أرائه السديدة . وتجاريبه الحكيمة حين يدلى فى أى مشكل عام بالفكر النير
أو العلاج الموفق !

ولقد عكف سموه من زمان بعيد على الاسفار والأرتحال الى مختلف الاقطار . دارساً لأحوال الناس فيها -
وكتب رحلاته . بأسفارها الطلية المملوءة باللطائف والمشاهدات الرائعة ، آية من الآيات التى تنطق بجماع
ما ذكرناه وفصلناه !

هذا الى جانب عناية سموه بكل ما من شأنه أصلح أحوال الفلاحين - وهم عنوان البلد ورمزها - ورغبته
فى العمل على نهضةهم . وترقية صناعات الخلية وطبعها بالطابع القومى الرائع ! . . . ولعل فى حرص سموه فى بناء
قصره الجميل عند ضفة النيل - تمثيل الروضة على الصراز العرنى الصميم . مصداقاً لهذه الرغبات !

ولا يمكن أن ينسى الناس مواقفه التاريخية العديدة في العمل على تآلف القلوب ، وتوحيد الصفوف بين أبناء البلاد ، ولا جهوده في سبيل اصلاح الأوقاف ، ولا أعماله الكثيرة في البر ، فإن سموه على الرغم من نكته أمرها . تواضعاً منه . في هذا المجال . قدوة يضرب بها الأمثال :

وهذه الصفات المجيدة ، يتجلى سمو الأمير محمد علي . وهذه السياسة الرشيدة يعمل في طليعة العاملين لكل ما من شأنه توفير أسباب الرفاهية لابناء الشعب ، واستكمال مجد مصر . طبقاً لمبدأي . مولانا الملك المحبوب فاروق الأول المعظم . . .

وكذلك أنشئت الجمعية الخيرية الإسلامية في عهد سمو الخديوي عباس . وكان الفضل لتأسيسها عائداً إلى جهود المرحوم مصطفى فهمي باشا ، أبان تقلده رئاسة الوزارة . كما أنشئت أيضاً الجمعية الخيرية القبطية والمشغل البطرسى .

إنشاء المتحف القبطي

وانشئ أيضاً المتحف القبطي الذي أسسه المغفور له حسين فخري باشا . بالاشتراك مع غبطة البطريك . والمنتيج ، الأنبا كيرلس . وقد اختير المرحوم نخله بك الباراقى مديراً له ، ولا بأس من إيراد النبرة التالية عنه : بدأت في الحقيقة فكرة جمع الآثار القبطية من مخطوطات وتحف واثار حوالى منتصف القرن التاسع عشر الا أن روح الحياة لم تشبع في هذه الفكرة السديدة إلا في سنة ١٨٨٢ حيث بدأت تتخذ شكل مشروع تحت التنفيذ إذ وضعت الكنائس القبطية الأثرية تحت إشراف لجنة حفظ الآثار العربية . وساعد بعد ذلك على تنفيذها تبعية الآثار المصرية على اختلافها لوزارة الأشغال التي كان (ناظرها) في ذلك العهد المرحوم حسين فخري باشا . الذي كان مولعاً بالآثار . والذي أولى هذه المسألة - أى إنشاء متحف للآثار القبطية - عناية فائقة واهتماماً عظيماً



المغفور له فخري باشا

، وكان عضد فخري باشا - طيب الله ثراه - في هذا الأمر الجليل المرحوم المستر هيرتس العالم الأثرى الفرنسى . الذي وضع تقريراً ضافياً رفقه لفخري باشا ، وعرضه عليه في اجتماع عقد في ١٨٨٧ . أثبت فيه أن الآثار القبطية مهمة في أركان المكنائس

المتهدمة وأن أمرها قد يؤول إلى الضياع وانعدام أثرها انعداماً كلياً ، إن لم تتدركها يد الحفاظ والعناية والتنظيم . وبما أن مشروع وقاية الآثار القبطية من التخريب والضياع لا يتم إلا بإنشاء متحف لها على غرار متحف الآثار العربية فقد طلب المستر هيرتس من فخري باشا أن يخبر غبطة بطريك الاقباط في ذلك العهد (المنتيج الأنبا كيرلس الخامس) لاجل الاتفاق معه على إنشاء متحف لها على نظام المتاحف الأثرية الأخرى فقبل عبضته هذا الاقتراح بكل ارتياح واختار جناحاً من كنيسة المعلقة ليكون متحفاً للآثار ، وانتخب لإدارته المرحوم نخله بك الباراقى الذي كان في ذلك الوقت ناظر الكنيسة المعلقة وأن يعهد الى المرحوم نخله بك الباراقى في

اختيار جناح خاص لها في بناء كيسة المعلقة بمصر القديمة ، وبعد ذلك تقابل نغرى باشا مع غبطة البطريرك السابق رحمه الله وتم الاتفاق بينهما على جمع هذه الآثار في جناح خاص بالسكنية المذكورة وأوكل امر هذا المتحف الى نخلة بك الباراق

و مما تجب الإشارة اليه ان جلالة المغفور له الملك الراحل العظيم فؤاد الاول قد شمل المتحف القبطى بعين رعايته وعمره بتفحاته السنية ، وأمر بوضعه تحت الرقابة الحكومية كالمتاحف الاخرى ، وكان لمعالى حلى عيسى باشا في عهد توليته وزارة المعارف في السنوات الماضية فضل البهوض به ، إذ احتفل بضمه الى الحكومة ، وأشار في خطبة القاها في ذلك اليوم الى فضل نغرى باشا في تأسيسه ، وظل دائم العمل على تحقيق رغبة الملك فؤاد السامية حتى غدا يضارع دار الآثار المصرية ، والعربية وسار في طريق التقدم اشواطاً بعيدة

الاميرة نازلى هانم فاضل والسلطان عبد الحميد

ومن الحوادث التي حدثت في زمن سموه ، أن البرنيس ، نازلى هانم فاضل وهي الاميرة الوحيدة التي كان لها صالون تقابل فيه رجال السياسة والوزارة والأدباء وكبار القوم ، وكانت ذكية جدا ومنقفة ثقافة عالية وملمة بالسياسة العامة في العالم ، وغيرة للغاية في الخرص على مصالح مصر وتركيا بنوع خاص — أن هذه الاميرة



الاميرة نازلى فاضل

ترجمت كتابا للبرحوم مصطفى فاضل باشا والدها ضد ظالم السلطان عبد الحميد وتصرفاته الخزية في تركيا ، وطبعته فغضب لذلك السلطان وكتب من سمو الخديوى أن يسترضيها بسكن ما لديه من الوسائل ويجمع ما في ميسوره من المغريات مع جمع الكتاب وأرساله لجلالته ففعل سمو الخديوى ما ضله السلطان وكانت دائماً وأبداً تدم تصرفاته وتعييب عليه جميع اعماله ، وأخيراً دعاها لجلالته للاستقبال ، فصحبها جميع أصحابها بعدم السفر ... واما منها — خوف عليها فلم تسمع النصيحة ونبت الدعوة وذهبت للاستتار ، ولكنها احتسنت لذلك كل الاحتياطات فمجرد

وصرفها الاستتار ، ذهبت مباشرة لدار السفير البريضى ونزلت عليه ضيفة كريمة ، وفي اليوم التالى لوصولها توجهت للسراى السلطانية وكان بصحبته مندوب من قبل السفير ، فمجرد أن علم بذلك جلالة السلطان قابلها أحسن مقابلة ، وأنعم عليها بكثير من الهدايا والعطايا وعادت معرزة مكرمة الى مصر ، فتوجهت لزيارتها والسلام عليها ، فوجدت لهجتها قد تغيرت نحو السلطان ، وأصبح كل كلامها نحوه بالمديح وآيات التقدير بعد أن كانت بالظعن والتنهير ، فقلت لها : سبحان من يغير ولا يتغير ! ما هذه لهجة كلامك قبل توجهك للاستتار ، فقالت : أجيئك عن سبب ذلك في الحال ... وأمرت أحد نوابعي أن يحضر صندوقاً من حجرة نومها وقالت : (وقد فتحتة أمامى وفيه ما يهر الابصار من جواهر كريمة ولآلى ، ثمينة وأحجار من المساس وذهب خالص) : يا حبيبي هذا ما أوجب تبدل لهجتي نحو جلالة مولانا الخليفة ؟ فضحكت كثيراً ...

ومن نوادرها الغريبة أنه عرض عليها من قبل الوزارة أن تتزوج بأحد الوزراء المشهورين وكان المرحوم نخري باشا فرفضت . وعرض عليها أن تتزوج بأحد الأمراء فرفضت أيضاً . وأخيراً قامت بسياحة إلى الخارج . وفي أثناءها عرجت على تونس فأعجبها شاب تونسي اسمه « بوحاجب » فتزوجت به في الحال . وهذا الشاب هو نجل قاضي المحكمة الشرعية بتونس . ثم عادت لمصر فقالت لي :

— ماذا يقولون يا باشا عن زواجي بالتونسي ؟ لا سيما بعد أن رفضت وزيراً وأميراً ! فقلت : يابرنيسة يقولون عنك أنك مجنونة ! فضحكت كثيراً وقالت : ما أعظم سروري لسماع ذلك ألا تعلم أن كل الناس مجنونون . كما يقول الشاعر — وإن أفي كان مجنوناً . فانددهشت لسرعة الخاطر وعظيم الذكاء اللذين اسكتني بهما . . . !

وكان لها نوادر كثيرة من هذا القبيل . وكانت تحب ركوب الخيل كما كانت جميلة الطفعة . حلوة الحديث . لا يشبع أحد من مجلسها وتحب كبار القوم وأدبائهم وطوائف العلما . ورجال السياسة . محترمة لدى الجميع . وكان اللورد كرومر يعزها ويقدرها جداً ويحب زيارتها كثيراً .

السلاطين الذين تشرفت بمعرفتهم

وبهذه المناسبة أذكر أني تشرفت برؤية السلطان عبد الحميد والسلطان رشاد في هذا العهد وكانت صلتى



المفوره السلطان رشاد

بالسلطان رشاد متينة نظراً للمساعدات التي أدتها مصر لشقيقتها تركيا عن طريق جمعية الهلال الأحمر المصري في حرب طرابلس . وكنت أنا وكيلها ونائباً عن جمعية الهلال الأحمر في استانبول .

وقد كنت بحكم هذه المهمة دائم الاتصال بالسلطان رشاد . وقد حظيت بمقابلته مرات عديدة . ولقيت من عطف عظمتة ما سهل لي المهمة المعهود إلى القيام بها على أكمل الوجوه .

ولا يمكن أن ينكر أحد ما أدته جمعية الهلال الأحمر . التي كانت تحت رئاسة سمو الأمير الجميل محمد علي في ذلك الوقت . لمعاونة شقيقتها الكبرى تركيا في خلال الحرب البلقانية التي كانت مستعرة الاوار في هذه الفترة من الزمن .

رأى في المصاريف السرية

جرت العادة . من قديم العهود . أن ترصد في ميزانية الحكومة مبالغ غير منظورة . أي « المصاريف السرية » والغرض الاصيل . أو الاساسي من رصد هذا المبلغ . هو انفاقها في كشف الحوادث الغامضة وخدمة أغراض الأمن العام . ولم يكن الوزراء يطلعون على هذه « المصاريف السرية » ما عدا الوزير المختص . وهو وزير الداخلية وقد كان الوزير في الزمن الماضي يستعمل كامل نفوذه . بلا حساب وبغير رقيب . في انفاق هذه الأموال وفق ما يريد . وحين كنت في الجمعية التشريعية . رأيت مظاهر هذا الاسراف والاخته بكل جلاء . إذ رأيت شخصاً اسمه « أرمولى بك » وكان يشغل وظيفة تشريفاتي برئاسة مجلس الوزراء . يتألف من هذه الأموال ٥٠ جنياً

علاوة على مرتبه كموظف في الحكومة . فاقترحت بحكم وظيفتي كرئيس للجنة المالية . أن لا تنفق هذه المصاريف إلا باطلاع مجلس النظار . لأن هذه الأموال هي من عرق جبين أبناء الأمة . ولا يجوز أن تبذل شئاً وبميسر بغير حساب . وأستندت في هذا الطلب إلى أن الوزراء جميعاً متضامنون . ولا يجوز أن يخفى عنهم ما يصرف من هذه الأموال بالتجديد .

وقد جرت مناقشات طويلة في هذا الرأي . وأرتاح أعضاء الجمعية التشريعية إلى ما قلته . ولما كنهم رأوا أن يدخلوا فيه تعديلاً بسيطاً . يتناول الفرع لا الأصل . والمظهر دون الجوهر — إذ قرروا أن يعود إلى المستشار المالي ، وكان وقتها هو السير بالمر مهمة مراقبة صرف هذه الأموال بالاستشراف مع وزير الداخلية . ولقد ظل العمل بهذا النظام قائماً إلى نهاية قيادة عهد الجمعية التشريعية وبعد ذلك رجعت الحكومات إلى سالف عهدها فيما يتعلق بها — أي ، بالمصاريف السرية . !!

زيارة الرئيس تيودور روزفلت لمصر



الرئيس المرحوم تيودور روزفلت وجانته المرافق (فلين باشا)
وطاريك الأقباط الابن المتزوج الانا يوانس

واقف كان لي شرف الاتصال بالرئيس
تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة
الأمريكية الأسبق ، عند زيارته لمصر .
إذ رغب في التعرف إلى بعض أقطاب
حين زار دار البطركية ، وتقابل مع غبطة
البطريك . وكانت لي معه مودة ظلت فترة
من الزمن متينة الأواصر ، والصورة التي إلى
يسار هذا الكلام ، تمثل الرئيس روزفلت
وسكرتيه عند زيارته لي في منزلي بحلوان .
ويرى فيها المتدريج الانبساط الذي كان
مطراً آنذاك لاسكندرية في ذلك الوقت .

والخلاصة

أن عهد سمو أخديدي المغفور له عباس حسي الثاني كان من أزهى عصور مصر . التي بدأت فيها الفكرة
الوطنية تتجني في شعب المصري . وإلى ذكر باخيد . أن أعظم الرتب والنباشين الرفيعة التي نلتها .
إنما كانت في عهد . أن أكثر المناصب الكبيرة التي توليتها إنما كانت في زمنه .

عصر المغفور له الخديوى توفيق

صفاته العالية

ارتقى المغفور له الخديوى توفيق عرش الخديوية، بعد تنازل والده العظيم اسماعيل . وكان فى صدر شبابه الناضر ، متحللاً بخير الصفات ، وحيد الشئائل . فالتواضع والدعة ، والميل إلى البساطة . وابن الجانب . كانت كلها متجسمة فيه . وأبرز ميزاته . وكان يتأى بنفسه ما أمكن عن مظاهر العظمة . والكبرياء . ولهذا أصبح قريباً إلى قلوب الشعب وإن كان ميله إلى الجرا كسة والاثراك ملحوظاً ، فإن ميله إلى رعاياه من أبناء مصر . لم يكن يقل عنه بحال . ولهذا تعلق به الرعية لما طبع عليه من كريم الأخلاق ورقيق الطباع . وجميل المناقب !



المغفور له سمو الخديوى توفيق

وكانت مقاليد الأحكام تلقى إلى واحد من الوزراء الثلاثة البارزين : رياض باشا ، وشريف باشا ، ونوبار باشا — كما كان الحال فى عهد والده — وكان لكل منهم من الصفات ما يؤهله لشوال ثقة ولى الأمر . ولم تكن جهود الخديوى توفيق المبذولة للعمل لخير البلاد لتفتر . الا تحت ضغط الحوادث الجسيمة التى حفلت بها أيام حكمه . فقد كان سموه غيوراً على مصلحة البلاد . ساهراً على كل ما من شأنه أعلا . ورفعها . واستكمال ما بدأه والده المتجدد الهمة ، من أسباب العمل فى التقدم بها فى مدارج الرقى والمعالى . . وكانت ثقة الخديوى توفيق بوزرائه الثلاثة الذين ذكرناهم .

تضاعف عن أئهم للعلماء النافعين فى خدمة مصر . من غير أن يعرف السكلل سبيله إليهم . وكان سموه يركن إليهم فى حل العقد . وتفريخ المشكلات التى تنشأ . . بما يضمن حسن سير الأمور !

كيف نشأت الحركة العراقية !

وقد وقعت فى مستهل عهد الحكم الحركة العربية . إذ كان المتبع إلى ذلك الوقت أن جميع الوظائف الكبرى تسند للأثراك والجراكسة . من دون أهل البلاد . الذين كانوا يتقلدون الوظائف الصغيرة الثانوية إلى رتبة أميرلاى . . . وكان التفاوت فى المعاملة بين الفريقين ، داعياً إلى غضب الضباط والجنود الوطنيين — فطلبوا من الحكومة بزعامة الأميرالاي عرابى بك . أن تعاملهم على قدم المساواة مثل زملائهم الآخرين . . . واتفقت كلمتهم على العصيان . قبل رفع شكواهم إلى سمو الخديوى . ورياض باشا رئيس الحكومة — الذى قابل الوفد الذى أنابوه عنهم فى رفع مظالمهم بالانصف ورحابة الصدر ، بمهلا أيامهم ثلاثة لبحث شكواهم — ولكن الدساتير التى طرأت أفسدت كل تدبير العلاج المحاالة مما ترتب عليه قيام الحركة العراقية !!

وتفصيل ذلك بالبحر أن موقف رفقي باشا ناظر الجهادية ومعاملته لعراني وصحبه بالقسوة . كان سيدياً في تدلاع الفتنة - لما كان من جرائه في النهاية . تفضل سمو الخديوي بإجابة طلباتهم . ومنها تشكيل مجلس النواب برئاسة المرحوم سلطان باشا وتأليف نظارة شريف باشا التي لم تدم طويلاً . كما هو معروف لدى الجميع . ولا شك أن هذه الحركة كانت أول حركة وطنية صحيحة في مصر في خير البلاد في مبدأ الأمر ايقظت الوعي القومي فيها بعد ركوده الطويل واستنامته زمناً بعيداً .

وبعد ذلك تألفت نظارة برئاسة عراني باشا ولكن الغلاء في الأمور كانت أبرز سببها إذ بدأت المطامع الشخصية تداخل قلوب أعضائها . واخذت المناقشات بينهم تعمل عملها في تفريقهم وإبعادهم عن أهدافهم الوطنية . ومن هنا احدثت هذه الحركة القومية تنقلب الى فتنة ومنازعات داخلية جرت على البلاد الإهوال والوبال ؟ .

موقف وطني لسلطان باشا

في ذات ليلة توجه عراني باشا ومعه بعض كبار الضباط الى منزل سلطان باشا رئيس مجلس النواب - وطلبوا منه عقد المجلس في الحال - وكانت دورة الانعقاد قد انتهت - وبحسب قانونه لا يجوز عقده الا بمرسوم خديوي . فلما استفسر عن الاسباب الاستثنائية التي تستدعي عقده حتى اذا رأى وجاهتها استصدر المرسوم على اسامه . . فانبرى له أحد الضباط وكان برتبة (بكباشي) يدعى عبيد افندي وأخرج سيفه من عنقه وقال : وحياة سيني هذا وشرفه أن تأخر عقد المجلس في هذه الليلة لأقطع به رقاب الحاضرين فبرأ سلطان باشا بهذا القول وابتنى موجها حديثه لعراني باشا : أمثل هذا الاحق يا عراني تحكم مصر وأظهر غضبه الشديد . فلم يسمع عراني إلا أن يعتذر له على ما بدر من زميله وأمر بطرده من المجلس .



المؤلف له سعاد باشا

ثم انفرد سلطان باشا بعراني وقال له مستفسراً : وماذا تقصدون من عقد المجلس فأجابه عراني أننا نريد استصدار قرار بخلع الخديوي عن العرش .

وهنا قال الباشا : ولكن هل الخديوي عيّن بأمر المجلس أو بقرار من الأمة المصرية فرد العراني قائلاً . أن هذا لا يهمنا بل الامر هو استصدار قرار من الأمة ونوابها لعدم رضاهم عنه وتقرير من يخلفه على العرش فقال الباشا : ولكن هب يا عراني أننا اتفقنا على ذلك فهل اتفقتم انتم فيما بينكم من سيكون خلفاً للخديوي فصمت عراني والوفد الذي معه قليلاً ولم يجيبوا بكلمة وهنا استنارد سلطان باشا قائلاً نصيحتي لكم ان تجتمعوا اولاً بمنزلكم على حدة . ثم تجمعوا

تفرد الكبار وتداولوا فيما بينهم ثم يقررون من يريدون أن يكون خديويًا على مصر وحيداً لك يجتمع المجلس وبصدر قراروا بمطالبتكم . فيكون قرار الخلع مقترناً بقرار تعيين الخلف . ويكون الخديوي الجديد مهملاً للمجلس على العرش . وكانت هذه حيلة بارعة من سلطان باشا استصوبها عراني باشا لاعتقاده بأن ليس بين زملائه من يستطيع نبوء العرش سواه . على أن سلطان باشا من ناحيته كان مؤمناً بعدم نجاحهم في الأمر نظراً للتدافس بين الضباط وبذلك حرص سلطان باشا من هذا المأزق بذلك الحيلة البارعة

ولقد صحت ظنون سلطان باشا إذ ما كاد عراقي يجتمع بزملائه لندوة في الامر حتى قال لهم : « من يكون ثوني مني بهذا المنصب وأنا قائد الحركة ، ... فانرى له البارودي باشا وقال : « وهن انت افضل مني وأنا من سلالة



المفطور له سامي البارودي باشا

سلاطين مصر القدماء ، ... فقال طلبه باشا أحد كبار الضباط موجها اليهما كلامه : « جميل !! ... انت من سلالة سلاطين ! . وهو قائد الحركة ! . ونحن صنعنا بيشكنا ! فقيل له : اذن وما العمل ؟ ... قال : « ان المملكة المصرية مقسمة الى اثني عشر مديرية فيجب ان يكون كل فرد منا خدوياً على مديرية ، فضحك الحاضرون بخزية منه واتفقوا على بقاء الحالة كما هي وكفى المؤمنين القتال .

الرجوع إلى الحق فضيلة

وبعد ذلك قصد عراقي إلى سلطان باشا وشكره على بعد نظره قائلاً له : « لو تم اصدار القرار الخاص بذلك الأمر وأردنا أن نختار من بيننا رئيساً منا لذبحنا بعضنا بعضاً قبل أن نوفق الى تحقيق هذا الغرض ثم شكره (وقبل يده علامة الامتنان) وأتى على نصيحته لهم . فسر سلطان باشا كثيراً النجاح حيلته . على أن ذلك لم يمنع عراقي وزملاؤه من استئثارهم بكل سلطة فعمت الفوضى في جميع المصالح والأعمال مما استحالت معه هذه الحركة الوطنية الى منازعات شخصية .

الاحتلال الانجليزي

ولما رأى سمو الخديوى توفيق ما آلت اليه الأحوال من السوء والفساد والاضطراب خشى العواقب وسافر إلى الاسكندرية وهنا أعلن العراقيون التمرد واستشارهم بالأمر وتمجمعوا على المقامات الرفيعة بالبلاد على أثر تشكيل عراقي وزارة جديدة لتصرف شؤون البلاد مما جعل الثورة تمتد الى كل ناحية . واستمر عراقي باشا يدير مقاليد الأحكام كأنه حاكم مطلق الحرية إلى أن تدخلت إنجلترا لقمع هذه الفتنة ، القوة وإعادة النظام والسلام فيها . وكانت قد عرضت على فرنسا الاشتراك معها في ذلك بالنظر لاشتراك المصالح بينهما في مصر . ففتحت فرنسا وانفردت إنجلترا في احتلال البلاد بجيوشها على أثر موقعة النيل الكبير التي اهزمت فيها الجيوش العراقية أمام الجيش الانجليزي . وقبض على زعماء هذه الحركة وحكم عليهم أولاً بالاعدام ثم عدل الحكم بالنفي المؤبد الى سيلان على نحو ما تضمنته كتب التاريخ

وبذلك أخذت الثورة العراقية ، وقضى عليها بعد أن انقلبت الى فتنة عانت الفساد في البلاد . ولما كان الختاب الخديوى قد عرف في تلك الأحوال عن سبكي العصمة الى أن تستتب فيها الأمور ، وبقي في الاسكندرية ، فقد اختير سلطان باشا وقام مقامه له يقيم فيها لاصلاح الأحوال . مع قيامه بأعمال الحكومة . وبالفعل تألفت نظارة شريف باشا ، وتولى فيها رياض باشا نظارة الداخلية . وكان ذلك إيذاناً باستتاب الأمن وتنظيم الأحوال . فعاد سمو الخديوى إلى عاصمة ملكه معزراً مكرماً ، وشكر سلطان باشا ما أداه للبلاد من جلائل الأعمال !

ولم أذكر أنه في أثناء قيام سلطان باشا بتنظيم الأحوال كانت ترد إليه برفيات كثيرة من مختلف الجهات عن تمرد بعض أناس ووجوب محاكمتهم . فكان يأمر بسجنهم تحت التحقيق . وفي ذات يوم حين كنا على ما نأمله



المرحوم علي آغا

الضعام ظمياً وردت برفية من القيوم تتضمن عصيان عمدة المديرية فأصدر على الفور أمره بسجنهم تحت التحقيق . فقلت له وكنت أصغر الحاضرين سناً : لماذا تأمر بسجن هذا وذاك ؟ نحن أهل القطر كلهم فقد كانوا جميعاً مساهمين في الثورة : فهم من كان يخشى سطوة الجیش . فأضطر أن يظهره . ومنهم من كان يعتقد أنها حرب وطنية للدفاع عن الوطن !! فليس هناك تفاضل بين واحد وآخر . . . فلما أن يشم العفو جميع المصريين . وكلهم كانوا أنصاراً للثورة بالحق وبالباطل ويعاقبوا جزاء ذلك . . . وأما أن لانهم بما يقال عن أنغمرها فيها . . . ؟ فقال سعادته وهو يتنسم :

— والله يا بني أنك أعقلنا جميعاً ولو أنك أصغرنا سناً ! . . .
ثم شكرني على ذلك ومن يومها لم يستمع لشكوى . . .

إشراف الانجليز على الشؤون العامة

وهنا بدأ الاحتلال الانجليزى في مصر . يستفتح عهده : بإشراف انجلترا على الشؤون العامة — فوضع نظام مجلس شورى القوانين الذى عمله المسيو دوفرين ، باشتراك شريف باشا معه . وأختير اللورد كرهـر ليكون ممثلاً لانجلترا . ومهما قيل في الاحتلال الانجليزى فلا يمكن أن يذكر واحد الخدمات الجزيلة التى أداها للبلاد المعتمد البريطانى . من دفاعه عن حقوق الضعفاء ازام تحكم الاقوياء . ومن عمله على تنفيذ الاصلاحات التى يكون من ورائها الخير العام لطبقات الشعب فضلاً عن اصلاح الرى . وربط ميزانية سنوية للحكومة . والزام الحكومة بصرف مرتبات الموظفين كل شهر بعد أن كان يصرف منها جانب في كل ستة شهور . والاهتمام بالاقتصاد . واذكر أنه في سنة ما أصيبت زواعة القطن ، بالدودة ، فأمر بتنقيتها . وكان ذلك أول مرة تم فيها هذا الأمر

وكانت للخديوى توفيق — ضيب الله ثراه — حسنات كثيرة : منها أنه كان وديع الأخلاق . لا يميل للأذى . ويعيش في بساطة تامة بعيداً عن المطامع . . . وقد عينت في عهده مراقباً للاموال الغير مقررة . في نظارة المالية . ومديراً عاماً للدخوليات — وأتصلت به كثيراً . فكانت اجده مثال الحاكم العادل . الذى يحترم انظمة الحكومة وقوانينها . كأنه فرد من أبناء البلاد .

وكانت عادة الزواج بالجوارى البيض شائعة في زمنه شيوعاً تاماً . وكان من حظ من يتزوجهن الرعاية والالتفات السامى . . . إذ كان يصيب كل فرد منهم عربة ٥٠٠ فدان . بخلاف جهازها . وعربة لوكوها . ولكن الاحتلال الانجليزى سرعان ما قضى على هذه العادات !!

عهد المستشارين الاجانب !

وبعد الاحتلال الانجليزى أصبح يوجد فى كل نظارة مستشار منهم ، للأشراف على سير الأحوال - وكان المستشار المالى على وجه التحديد . معدوداً فى النفوذ والسلطة ، الرجل الثانى بعد العميد البريطانى .. وكان لنظار مصر العظام معهم مواقف مشهودة . فى بعض المسائل تدل على ما كانوا يمتازون به من الأنفة ، والعزة الوطنية ، والكرامة الانسانية

أملابس صيد ؟

حدث ذات يوم أن كان رياض باشا بنظارة المالية : فى غرفته ، فدخل عليه المستشار المالى : وكان يلبس ملابس بيضاء . وحزاماً أحمر ، فلم يرض دولته هذا المنظر لموظف مصرى ... فنظر إليه فى شيء من الدهشة وسأله : هل جنابك قادم من الصيد ؟ . فأجابته : : لماذا يا دولة الباشا ؟ فأشار إلى ملابسه وقال : : لأن هذه الملابس ليست ملابس مصالح ؟ بل هى أعدت للصيد ! غفجل المستشار وفهم قصده .. وفى الحال عاد إلى منزله ، وغير ملابسه ، ووضع طربوشاً على رأسه ، ورجع إلى الديوان واستأذن فى الدخول على رياض باشا .. الذى ما كاد يراه حتى ضحك فى وجهه وقال : : نعم ! .. هذه هى ملابس النظارة يا جناب المستشار !!

لا يفرط فى حقه !

حدث مرة أن دخل السير غورست عند ما كان مراقباً للأموال المقررة بالمالية على رياض باشا لعرض بعض الاوراق .. وكان من ضمنها عريضة وردت إليه بالنظم فى أمر ، فقال : : لقد وردت لى هذه العريضة ، فأشرت عليها بكذا وكذا - ولكن قبل أن أرسل الاوراق إلى جهة اختصاصها أردت أن أعرضها عليكم . لارى هل تنفق فى الرأى .. فقال له رياض باشا : : اعطنى العريضة . ثم أخذها ومزقها أرباً أرباً ... ووجه اليه كلامه قائلاً : : أسمع . لا وجه لتقديم المنظمات إلا للوزير فقط .. والا فإل عيت انت وزيراً آخر لالت فى هذه الامور ! وهنا سكث غورست مع ما كان معروفاً عنه من الأنفة والكبرياء ، وغنم من السلامة بالصمت . وخرج بالصمت عن لا .. ونعم !

وبعد ذلك أصدر رياض باشا منشوراً . بأن كل الشكاوى لا ترفع إلا للوزير مباشرة . دون سواء ، وإلا لن ينظر إليها ...

الاعتداد بالنفس !

واذكر من مواقفه مع النظار أنفسهم ، ما يمثل مواقفه مع الانجليز ، فى الاعتداد بنفسه ، من ذلك موقفه مع اللورد كرومر فى تعيين المستر سكوت مستشاراً للحقانية . وما كان له مع الخديوى ، مما نمر عليه من الكرام .. ثم موقفه مع المرحوم نجرى باشا حين أصدر منشوراً موقفاً بامضائه بناء على تعليقات صدرت إليه من المستشار الانجليزى المذكور ، فانه بمجرد اطلاعه عليه دعاه اليه وسأله : : هل كنتم فى غيبوبة ساعة أصدرتم هذا المنشور ؟ أراد نجرى باشا الاعتذار عنه . والتخلص من تبعته ... لم يقبل اعتذاره . وخيره بأن يغيره بأخر (أعطاه

صورته) أو الاستقالة . وأمله ست ساعات للتفكير في الأمر ... فلما عرض غفرى باشا الأمر على . سكوت . فضل هذا تغييره ، حلاً للمشكلة ، وتجنباً لـ غضب رياض باشا ... وكان الله بالسر علياً !!

بينه وبين تـجران باشا

وحدث مرة من نوادره اللطيفة أن دخل عليه المرحوم تـجران باشا ناظر الخارجية ، وكان يحمل في يده عصاه فاستدعى رياض باشا الحاجب الواقف بالباب . وقال له : « سعادة الباشا نسي أن يترك عصاه عندك وقت دخوله هنا فخذها واحفظها أمانة ، وسلمها له ساعة الانصراف ، ! فنجـل تـجران باشا . وسلم العصا للحاجب . وهو لا يـبـت ببنت شفة !!

شدته حتى مع خاصته !

ووقع لي معه ما أيضاً حادث طريف ، إذ دخلت عليه مرة لعرض مسألة هامة - وجلست من تلقاء نفسي . قبل أن يأذن لي بالجلوس . فما كان منه إلا أن غضب وصاح منفعلاً وفي حالة عصبية ولهجة حادة : « ماذا تريد ؟؟ ، فأدركت الأمر لفوري ، وفي الحال نهضت واقفاً وقلت : « عندى مسألة هامة أريد عرضها على دولتكم ، فأجابني : « ليس لدى وقت الآن ، فاذهب إلى أن أدعوك !

وبعد برهة من الزمن استدعاني . وتذكر تلك المعاملة القاسية لي فطيب خاطري وقال لي : « أننى إذا عاملتك هكذا ، فلأنك عندى بمنزلة ولدى ، ! وكان هذا القول منه ترضية كافية أوجبت ارتياحى . وانستى مافات . .

حبه للعدل وانصافه للظلوم !

وكانت عدالة رياض باشا . وميله لمعاملة الناس بالمساواة ، أبرز صفاته . وأذكر أنا شخصياً حادث يتجلى فيه هذا الخلق الكريم ، بأجلى بيان ، حين راجعت حكماً أصدره نجله . محمود رياض باشا . عندما كان مديراً لـ أسيوط وكان ضمن اختصاص عملى مراجعة جميع الأحكام التأديبية ، فوجدت به ظلماً بيناً ، اضطرت معه إبراء لـ ذمتى أن أرجع فيه إلى دولة رياض باشا وقلت له - حيث كنت المكلف بمراجعة أحكام مجالس التأديب :

- لما أعلمه من عدلك المشهور ، أتجاسر بالشكوى من الحكم الظالم الذى أصدره نجلكم محمود باشا : حيث أصدر حكماً جائراً ضد موظف صغير لم تسمع ظروفه بالمثل بين يديكم . والتظلم منه إليكم : وكانت نتيجة الحكم عليه بالرفق والحرمان من المعاش ، وأنا أعلم أنكم لا ترضون أن تضعوا اسمكم الكريم على مثل هذا الحكم ! فلما سمع رياض باشا ذلك ، سر له وارتاح لصراحتى ، وكتب بخط يده بإلغاء الحكم موجباً لنجمله على الخطأ الذى اقترعه ، وإعادة النظر فى الدعوى من جديد ، انصافاً للحقيقة !!

مجالس استئنافية للتأديب ؟

وأنتهزت هذه الفرصة التى سنحت لرياض باشا ، لى يتبين خطأ نجله فى أحد الأحكام ، وقلت له : « طالما أن زمام الأمور بين يديكم ، فلا خوف على أحد من ظلم يصيبه . ولكن هل يمكن ضمان ذلك مع غيركم من الحاكمين ؟ ، فقال لى باسماء وماذا تريد من قول هذا ، ؟ فأجبت دولته : « إنى أقترح أن يكون لمجالس

التأديب بالفروع . مجالس استئناف لمراجعة الأحكام . لأن ذلك خير ضمان لعدالة الأحكام ، ! فاستصوب دولته اقتراحي . وعمل على تنفيذه . واقترحت أيضا أن تتبع الدائرة السنية أنظمة الحكومة ، لأن موظفيها يكابدون العناء . وتنصب عليهم المظالم بسبب صلف رئيسها فريد باشا وتعتته - لأنه لا معنى لأن تكون منفصلة عن الحكومة . مع أن معاشات موظفيها تصرف من الخزنة العامة . وفعلنا أمر دولته بتحقيق هذه الفكرة ، على أن يكون استئناف مجلس تأديبها تابعا لنظارة المالية .

ولكن هذين الأمرين - على الرغم مما أفادا به الموظفين من خير عميم ، قد أثارا سخط المديرين ، وعلى الأخص فريد باشا . الذي وجد أنه قد أصبح مقيدا بالتزامات لا عهد له بها ، لأنها تحد من نفوذه وسلطته التي لم يكن لها حد . . . فحضر إلى ديوان النظارة وقابلني وأطلعني على ذلك . . . فأشرت عليه - ولكن في تحابث - أن يقابل رياض باشا . ويعرض عليه الأمر . . . فما كاد فريد باشا يفتحه في ذلك ، ويعلمني إليه ألمه . حتى غضب عليه وسخط ، وأمره بالاستقالة إن كان لا يرضيه الخضوع للأوامر الحكومية . . . ولولا وساطة المرحوم محمود باشا - بوسغلي ، - صهر رياض باشا ، وطلبه أن يفضي عما عرضه فريد باشا ، أخرج فريد باشا من خدمة الحكومة . . . وقد أمر أيضا بالخضوع لكل التعليمات ، متعهدا بقبوله المحاكمة إن وقع على موظف منه ظلم أو جورا

بينى وبين غورست

ومن تولوا نظارة المالية غير رياض باشا ، المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا وكان رجلا غزير العلم ، واسع الفكر ، ذا شخصية مهمة ، لدى الموظفين - مصريين وإنجليز على السواء - وكان ملأا المأما كاملا بطائفة من اللغات الأجنبية . ومقتدرا في فن الحسابات . . . واذكر يوماً أن جاءه جناب السير غورست ، - وكان اذ ذاك مراقباً عاماً للأموال المقررة - وقدم إليه خطاباً لتوقيعه ، فأستدعاني رشدى باشا وطلب إلى تعديله بالطريقة التي تلائم ، كما يروق لي ، ففعلت . . . وبعد أن تم ذلك وقع الخطاب . . . فوجب ذلك غضب السير غورست ، فحضر إلى مكنتي عاتباً على تدخل في عمل خاص به . . . فلما أبدت له أن ما عملته هو تنفيذ أمر الوزير الذي لم يكن لي مندوحة عن طاعته . هدأت ثأرته ، وسكت . . .

وكلاء الوزارات الانجليز . .

اما اشهر وكلاء الوزارات الانجليز الذين كانوا على عهدي بوظائف الحكومة . فهم : بلوم ، واللورد ملتر ، ودوكنس ، ومتشل أنس ، وبالمز ، وغورست .

وانى أشير اشارات عابرة ، الى صفات بعضهم ، والى نوادرهم ، ليتبين منها حقيقة الاحوال في هذه الاوقات ، كل راغب في الوقوف على هذه الفترة من تاريخ مصر ، ولا سيما أنها تعطى صورة دقيقة لأنظمة الحكم في البلاد .

فالمستر بالمز كان رجلاً نشيطاً للغاية ، يحرص على اداء واجبه . حسن التصرف في الأمور ، سريع الفهم للأشياء . ومن هنا كانت له شخصية مرهوبة . وكان محباً للحق . ميالا للانصاف - ولو تقاضى امامه انجليزى ومصرى - فكان الحق هو الذى يقف في صفه . بغير أى اعتبار آخر . . . ولكنه كان كمثل مستشار انجليزى ، . . . ممسكا ، للغاية في الميزانية !

حدث مرة أن كان هناك موظف انجليزى يدعى . هوكر ، يعمل فى إحدى الوظائف التابعة للصحة التى كنت أديرها — فتوجه إلى القصر الحديوى فى يوم التشريفات ، وبدل أن يقف فى صف موظفى الفروع ، الذى هو على غرارهم . فقد تجاسر بسماحة لا تعرف حدوداً ، ووقف فى صف موظفى العموم ، أى النظارة ، وقال لى مع أنى رئيسه : « لا يصح أن تدخل قبلى ، وانت مصرى ، وأنا انجليزى ، .. ! فقلت له : « يظهر ياخواجه أنك تجهل الصف الذى يجب أن تقف فيه ، ! ثم ناديت المرحوم خيرى بك التشريفاتى وقلت له : « قل لهذا الخواجه أين يكون محله ، ! . وهنا قال له خيرى بك يامستر هوكر ليس هنا مكانك .. تعال معى وأنا ارشدك إليه ، فاستشاط هوكر غضباً . وأعتبر ذلك اهانة له ، وطلب من الحاضرين أن يكونوا شهوداً .. وبعد التشريفات . عدنا للوزارة فسبقنى وقدم شكواه لوكيل المالية السير غورست ، فلما استدعانى ، وكنت إذ ذاك متهيّجاً لما حدث ، وعقدت النية على أن لا أتساهل فى شئ . ولو اقتضى الأمر أن اعتزل منصبى فى الحكومة .. فلما دخلت على السير غورست بادرنى قائلاً فى لطف : « لماذا ياقلبنى بك اهنت اليوم المستر هوكر فى التشريفات ، ؟ فقلت له : « هذا كذب محض ، ! فقال : « هذا ما قاله لى شخصياً ، .. وأشار إليه ، وكان بجانبه .. فأصررت على أن هذا كذب .. فقال لى : نعم .. نعم .. قص على أنت ما حدث .. !! فرويت عليه كيف أن هوكر اخترق الصفوف ، وأقبل نحوى يريد أن يسبقنى بحجة انه انجليزى وأنا مصرى ، فلا يجب أن اتقدمه ، مخالفاً بذلك النظام ، إلى آخر ما حدث من استدعائى أحد رجال التشريفات .. وهنا قال لى مغرضاً — والغرض مرض ! — « ولكن هل نسيت ياقلبنى بك أن مرتبه أكبر من مرتبك ؟؟ ، فضحكك وقلت له : « جميل ! ولكن هل تحاكى على ذنب انت اقترفته فى حقى .. ؟ ومن قال أن يكون مرتب الرئيس أقل من مرتب المروؤوس غيركم أنتم ، ؟ !

وهنا استدرك قائلاً : « انت اليوم عصبي المزاج ، فلنلق المسألة ليوم آخر ! .. ، فقلت : « كل يوم نتحدث فى هذا الأمر أنا هكذا ، فمن الخير أن تفصل فى الأمر الآن ، ! .

فأحال الموضوع على المستر بالمر ، الذى غضب غضباً شديداً عندما وقف على تفصيله ، وأمر هوكر فى الحال بأن يقدم اعتذاره إلى منبها إياه بأن هذا مما يوجب الخلل فى الأعمال .. . وفعلنا حضر إلى مكتوف اليدين وقدم اعتذاره بكل تواضع ، إلى حد أنى دهشت لهذا التبدل الفجائى . والفضل فى ذلك يعود إلى عدالة بالمر وانصافه .

انشاء ساحلى روض الفرج واثر النبي

وقد كان . لبالمر ، فضل معاونتى على تنفيذ مشروع انشاء ميناء بالقاهرة تشبه ميناء البصل بالاسكندرية ، للتجارة ، وأخبرت لها . روض الفرج ، مكاناً ، وقد اقتتخاها بحضور الجنباب الحديوى واللورد كرومر ، وسائر ممثلى الدول الأجنبية ، كما أنشأنا أيضاً ساحل اثر النبي على نظامه ، وجعلناه لتجارة ادوات البناء .

صفات غورست المحببة

وأما السير غورست فكانت له معنى نواذر كثيرة ، سواء حين كان زميلى فى المالية حيث كان مراقباً للأموال المقررة أو وهو مستشارها .. فقد كان ذا ذكاء حاد . شريف النفس ولكنه كان رقيق المزاج . فكان يميل لركوب الجياد ، وسباق الخيل ، ولعب التنس ، وملاطمة الجنس اللطيف — وأما على شاكلته فى هذا الأمر ، ولا غير ! —

ولكنه كان ملولا ، سرعان ما ينفر من العمل ، لأعتلال صحته . ومع ذلك أدى لمصر خدمات جزيلة ، لا ينكرها عليه أحد ...

الغاء ضريبة الدخوليات

اذكر مرة انه استدعاني وهو مستشار للبلدية ، وقال لي : « أريد أن اعمل عملا يرضى أهل البلاد ، ويكسبني محبتهم ، فإذا تقترح عليّ : فقلت له : « نعمت الفكرة ! وجذا الداعى عليها ، والحافز اليها ! »
ثم تقدمت اليه بأقتراح الغاء ضريبة الدخوليات التي كان يثمن منها الناس انبتاً متواصلا ، فجميع أنحاء البلاد .
والقاء عوائد الالهوسة ، المقامة على الكبارى . فانه ليس هناك ما هو أثقل على النفس منها !!
وهنا نظر الى مدهشاً وقال : « انى اقرك على رأيك ، ولكن الذى يثير العجب ، أن هذه الضرائب هي التي تمول المصالح التي تديرها ، ومعنى الغائها الغاء لوظيفتك ؟! » انى لا افهم لذلك معنى ، ! فقلت له باسمّاً : « ان هذا الخير الذى تعمله لبلادى ، سوف يعمنى كمواطن ، ويعم اهلى وعشيرتى ، وانا لا ابالى بنفع شخصى من أجل بلادى ، فالوظيفة تقليد ، لا تخليد ، وهي لى اليوم ، وغداً ليست لى ، ! »
فسر الرجل من هذا الحديث ، وفعلنا حقق هذا الاقتراح ، الذى فرح له ابناء البلاد .

بلوم باشا

ومن الوكلاء الاجانب كذلك نذكر المرحوم بلوم باشا - وكان اسرائيليا من أهل النمسا - ويندر من كان له نشاطه . وحبه للعمل . ويعتبر فى كرم الأخلاق « نسيج وحده » . يؤثر المعروف ، والميل الى الخير .

من تداخل فيما لا يعنيه ؟

وكان فى عهده يوجد موظف يسمى « أسمعلوم بك » - وكان يتفرد بسماجة عجبية ، وله اطوار غريبة . وكانت الوظيفة التي يشغلها هي وظيفة مفتش بالمالية ، فى عهد بلوم باشا ..
حدث ذات يوم ان كنت بمكتبى ، فاذا بجاوبش يدخل على أحد الموظفين الذى يعملون فى ادارتى ، وقال له :
« تفضل كلم ... إن البك يدعوك لأمر هام » ! فوضع الاوراق ، وهم بتلبية الدعوة ، فلما علت بذلك دهشت ودعوته وسألته : « الى اين أنت ذاهب ؟ » فاجابنى : « ان البك يطلبنى » ! فقلت : « أى بك معنى ؟ » ، أجاب :
« اسمعلوم بك » ! قلت : « وهل هو رئيسك ، وهل تعمل تحت ادارته » ؟ ثم أمرته ان لا يذهب اليه ، والا فسوف ارفته من العمل ، ودعوت الجاوبش ونهت عليه بان لا يعود ، والا فسوف يطرد ...
ثم توجهت إلى بلوم باشا ، وشرحت له ما يترتب على ذلك العمل الذى تعدى فيه أسمعلوم دائرة اختصاصه من فوضى .. فطيب خاطرى ، وهنا أحضره أمامه وآخذه على تصرفه . واندبه بأنه فى حالة العودة إلى ذلك ، فسوف يعرض أمره على رياض باشا ، ولن ينجيه أحد من عقابه .. تخاف أسمعلوم بك ، وعمل على ارضائى ، وكف عن تصرفاته الخاطئة ... !

اللورد ملتر ومتشل انس

ومن هؤلاء الوكلاء الانجليز اللورد ملتر ، الذى عين فيما بعد حاكماً على الترنسفال . فقد كان رجلاً كريم الأخلاق ، واسع المدارك ، على الهمة ، كبير النفس مع استحياء . وهذه الصفات الجميلة ، كان يقابلها ما هو نقيضها فى شخص خليفته ، متشل انس ، الذى جبل بطبعه . ومنذ اليوم الذى ولى فيه وكالة المالية على الأذى والشر . والحق يذكر أن الموظفين الانجليز كان فيهم العظيم ، وكان فيهم السخيف .. وكان كل منهم ينفرد بصفاته التى تقربه إلى القلوب ، أو تنفر منه الناس ، ونحن إذا ذكرنا سوء طباع ، متشل انس ، فإننا نجد مثلاً من سبقه وهو اللورد ملتر . ومن جاء بعده مثل المستر دوكنس ، كان له من الصفات الطيبة ما يمحو سيئات المسىء منهم ، وإنى فيما ذكرته سواء ما اتصل فيه بنفسى ، إنما أقرر الحقيقة ، بغير أى زيادة أو نقصان ، لأنى أودى للتاريخ ما فى عنق من أمانه مقدسة !!

المصالح التى كنت أديرها

والمصالح التى كنت أديرها هى مصالح الدخوليات فى جميع مدن القطر المصرى ، ومصايد الأسماك سواء فى الشواطىء المالحة أو الحلوة ، والملاحة بالنيل ، ومصالح الملح والنظرون ، والضربخانة ، أى كل ما يتعلق بصك النقود الفضية ودمغ المصوغات .

وكان يدخل ضمن إدارتى أيضاً ، الإدارة العربية بنظارة المالية . وكان من عملها النظر فى جميع أحكام التأديب لمصالح الحكومة . وطلب منح الرتب والنيشين لموظفى الحكومة وسواهم ، وتحضير الكسوة للجمل الشريف ، وإرسال الغلال إلى مسكة المكreme . وفوق ذلك كنت عضواً باللجنة الدائمة لتعيين الموظفين ، وعضواً بلجنة تنقيح قوانين المحاكم ، بالنيابة عن وزارة المالية .

بعض الخدمات التى أدتها

وإنى أذكر بعض الأعمال التى نهضت بأعبائها فى هذه الوظائف ، وكلها تمت فى عهد المغفور له الخديوى توفيق . وأحمد الله أنى نلت كامل ثقة رؤسائى من الانجليز ، ومن المصريين ، ولا سيما بالمر ، وغورست ، واللورد كرومر ، فضلاً عن ثقة جميع النظار المعروفين وعلى رأسهم رياض باشا . . . وقد زادت الإيرادات فى عهدى نحواً من ١٩٣٢٠ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ . . . فوجب ذلك حقد الكثيرين على أمثال متشل انس ، ودهوكرا ، وأضرابهم ، ممن كانوا لا يرضيهم أن يتفوق عليهم موظف مصرى ، وكان كل منهم يطمع فى أن يحل محلى فى منصبى . . . ولكن نزاهتى وجدارتى للعمل المعهود إلى القيام به . لم يجعلنى أبالى بدسائسهم ، وخرجت من الممعنة ظافراً عليهم ، والله الحمد !

وإنى لأحمد الحق تعالى الذى نصر الحق ، وقوانى على خدمة الفلاح الضعيف ، والتاجر الصغير ، خدمات لا تحصى ، حين حققت لهم إلغاء الضرائب التى كانت تثقل كاهلهم ، فضلاً عن إلغاء عوائد الحدائق التى كانت تلحق بالمنازل ، وتخفيض رسوم دمع المصوغات ، وإلغاء كى المشاية . مع العمل على رفع شأن صغار الموظفين . وإنصافهم والانعام على المجتهدين منهم بالنياشين إلى جانب إنشاء كوبرى عباس تخفيفاً للضغط الواقع على كوبرى قصر النيل

وغير ذلك من الأعمال ، التي لا أرى هناك ما يمتنع من التفاخر بها ، لأنها كلها كانت في مصلحة بلادى ، وخدمة ملكى ، وأنا مطمئن الضمير إلى ما نلت من رضا الجميع ، فى هذا السبيل !!

وقفة عند سلطان باشا ..

والاستكمال الحديث عن بعض عظام ذلك العمد ، اذكر اسماء الذين استأثرت بهم رحمة الله انثذ وهم المغفور لهم : . شريف باشا ، وعلى مبارك باشا . و سلطان باشا ، وأحب أن أخص بالحديث منهم سلطان باشا لأنى كنت أعرف الناس به . وأقربهم إليه :

نشأته الاولى

نشأ سلطان باشا من أصل مصرى يمت للعرب بصلة . وكان من صغره ذكياً ذكاه فطرياً ، مع أنه لم يتعلم بالمدارس . ولكنه كان فصيحاً بسجيته . طلق اللسان : وأتقن اللغة العربية ، على كبر ، حق الاتقان وكان بوجهه السمع ، وبحياه البشوش وقامته المعتدلة ، يجتذب قلوب الناس . أما عن همته ، وحبه للخير ، واريحيته الاصيله لحدث ولا حرج ! وكان كسائر ابناء العمد ، أول منصب تولاه ، هو منصب العمودية ، وقد كانت الصداقة التي أنعقدت بينه وبين المرحوم الشريعى باشا — الذى كان يشغل ناظر قسم ، أعنى مأمور مركز قلو صنا — من أمتن الصداقات التي عرفت فى ذلك الزمن !

كرمه الحاتمى !

وكان المرحوم الشريعى باشا ، من المقربين إلى الجناب الخديوى ، وكان أيامها هو المغفور له سعيد الاول . الذى طلب منه أن يرشده إلى احد أعيان البلاد ، الذين يليقون بشغل وظيفة ناظر قسم ، فارشده هذا إلى ، الحاج محمد أبو سلطان ، صديقه . وعمدة زوية الاموات . . فطلبه سعيد باشا ، وسر منه ، بعد أن تحدث إليه ، وسأله : هل يمكنك أن تضيفنى وجنودى ببلدك ، ! اجاب ، نعم ! يا افندينا ، وهذا غاية الشرف ، ! فقال سموه : سأحضر عندك بعد ثلاثة أيام ، !

وبالفعل توجه إليه الخديوى ببعيته وجنوده ، فأقام لهم ، أبو سلطان ، أغر السراذقات ، ومد فيها الموائد العظيمة على الطراز العربى ، فكانت وليمة من الولايم الكريمة ، !

بينه وبين الخديوى سعيد باشا

والكن الخديوى سعيد قال له : إنى مع سرورى الكامل بما تجلى لى من كرمكم ورجواتكم ، لا أخفى عليكم أن المنزل الذى تسكنه لا يتعادل مع المنصب الذى سوف تشغله ، ولا يلحق بضيافة الملوك والعظماء ، ولا سيما أن فى نيتى أن أعرج لزيارتكم فى عودتى من الرحلة إلى السودان ، وتستغرق خمسة شهور ، !

تعيينه فى الحكومه !

ولم يمض غير قليل حتى اجتمع سلطان باشا بالمرحوم الشيخ على اللبى ، الذى أرشده إلى مهندس لىلى له القصر المشود . وفرشه بأغر الآثاث والرياش ، وزينه بحديقة غناء ، جميلة المنظر ، حتى أن الخديوى عند ما قفل راجعاً

من رحلته ، وجده مهبطاً لنزولة ، مما زاد في أعجابه ، وكان ذلك علامة الرضاء السمي ، إذ أمر بتعيينه ناظراً لقسم قلو صنا مكان الشريعي باشا ، ورقى الأخير إلى وظيفة وكيل مديره « بنى سويف » ،

وطنيته العالية !

وليس من اليسير على من يريد أن يتعقب تاريخ المرحوم سلطان باشا أن يحصى خدماته الجمة للبلاد والعباد ، وهو في مناصب الحكومة ، ولكن جملة القول فيه أن نذكر أنه ما من عمل كان يجد فيه مصلحة لجاهل الشعب ويتوانى عن أدائه ، أو يغفل عن تنفيذه ، بما جبلت عليه نفسه العالية من غيرة وطنية ، وإخلاص صحيح . . .

حيلته الواسعة !

أذكر على سبيل المثال لا الحصر ، أن طوائف اليونانيين كانت في ذلك الوقت تداين الأهاليين بديون جسيمة تكاثرت على الأيام ، بسبب الربا الفاحش ، والفوائد المركبة — إلى حد أنهم كانوا مرتدين للكثير من أراضيهم وأملاكهم في القرى والمدن بالأقاليم — فقال ذلك الأمر الخطير سلطان باشا ، وأراد أن يعمل على استخلاص أطيان الأهالي وأراضيهم من برائن هؤلاء المراهين الأجانب ، ويخفف عنهم ما يفدح كواهلهم من أثمانها — فالتجأ لتحقيق هذا الغرض النبيل إلى الحيلة ... فن نوادره في هذا المجال ، أن أحد الأروام وكان اسمه الخواجا « باسيلي » ، الذي كانت تربطه صداقة بالمدير في ذلك العهد وهو « حسن باشا أبو نيشاتين » ، كان يستغل هذه الرابطة في التأثير على مأموري المراكز لمعاونته على تحصيل ديونه من الأهالي ، بحيث كانوا يحملون العاجزين منهم عن السداد على أن يتنازلوا عن أراضيهم بالرهن ، أو بالبيع ، للخواجة المذكور فما كان من سلطان باشا إلا أن كتب لعمد البلاد وأعيانها وللدنيين بأن يسددوا ما عليهم من الديون ... وفي الوقت نفسه بعث إليهم بالرسول ، ليفهمهم بأن الكتاب الذي أرسله إليهم ، هو « تسديد خانة حسب الأمر ! » ، ولكن الواجب عليهم أن يمتنعوا عن السداد .. وظلت الحال على هذه الوتيرة . حتى ساءت حال الأجني المراهي ، وأشرف على الإفلاس فالتجأ إلى أبي سلطان وشكاه ظروفه ، ولاذبه بما هو حادث .. فأفهمه سلطان باشا بأنه إذا أراد أن يحصل على أمواله ، فعليه أن يتنازل عن الفوائد ، ويكتفى برأس المال ، لا سيما والديون قد أفقرت الأهاليين . ورأى الخواجة أن من الصواب أن يغتم من الهزيمة بالأياب ، فردت الأراضي إلى أصحابها ، وقطعت الديون على مدد متفاوتة ، وبذلك أنقذ ثروة البلاد العقارية من أن تؤول إلى غير الوطنيين من أبناء البلاد !!

حاكم الصعيد العام !

ولقد أظهر سلطان باشا في كل منصب تولاه كفاءة ممتازة ، سواء في وكراته لمديرية بنى سويف ، أو أيام أن كان مديراً « لروضة البحرين » ، — الغربية والمنوفية — إلى أن أصبح حاكماً عاماً للصعيد ، حيث لمع نجمه وتألق إلى درجة الاشراف ، في عهد الخديوي اسماعيل والخديوي توفيق كما سيأتى القول .

الغاء السخرة وعقوبة الكرباج !

عند ما كنت أعمل معاوناً في الدائرة السنية ، قلت له : « متى يرحم الفلاح يا باشا من السخرة القاسية ، واداء الاعمال بغير اجر .. ومن عقوبه الكرباج » ؟ فسألني : « وهل انت تمنى ذلك » ؟ قلت : « بغير شك » ، فهذه من

مظاهر عهد الاقطاع الوحشية ، ١٩ وفعلأ أنتهز فرصة تشكيل النظارة المختلطة ، واستدعاني لمصاحبة لزيارة المرحوم نوبار باشا ، وطلب اليه تحقيق هذه الفكرة واداء الأعمال بالأجور ، وتم ذلك الأمر .
ثم طلب منه ايضاً الغاء العوائد الشخصية ، وعقوبة الكرياج بموافقة السير ريفورس ولسن ، ناظر المالية في ذلك العهد — وكنت انا في اثناء هاتين الزيارتين ، ترجائاً لحال سلطان باشا ، فنجحنا والله الحمد في هذه الأمور التي تعتبر كسباً لمجموعة الأمة المصرية !!

بينه وبين القناصل !

اذكر من مواقف التي تنطق بالشتم والاباء ، أنني كنت استصحبه في طوافه بالاقاليم ، للأشراف على سير الأعمال ، وكنت اذ ذلك معاوناً بتفتيش الاقاليم ، ان وصلنا الى أسيوط في باخرة نيلية ، فلما قابله مديرها — وكان المرحوم حسين باشا واصف — « الشركسي الاصل » ، أن جاء حديث عن سير سداد ضرائب الحكومة واموالها ، فقال المدير : « إن جميع أهالي المديرية قد سدّدوا المطلوب عليهم ، ماعدا جماعة القناصل ٩٩ » ، فدهش سلطان باشا لهذه الكلمة ، وكبر عليه الأمر ، واستغربه وسأله : « قناصل ؟ وهل يوجد عندك هنا قناصل ؟ »

أجاب المدير : « نعم !.. إنهم جماعة « ويصا » وجماعة « خياط » ! ففضب سلطان باشا وقال للمدير : « ومن عمل هؤلاء قناصل ؟ الى حد أنهم يمتنعون عن سداد مطلوبات الحكومة .. هل يظنون انفسهم دولة داخل الدولة ٩٩ » ، ثم فكر قليلا واستطرد في القول :

— : « أسمع يا سعادة المدير .. إذا كان هؤلاء يعتبرون انفسهم غرباء عن البلد ، وتحت الحماية الأجنبية ، فأكتب أمراً يحظر على الأهالي العمل في زراعاتهم ، أو التعامل معهم ، بل يجب عليهم أن يقاطعوهم ، فان ذلك خير عقاب لهم ، !

ولم يمض غير قليل من الزمن ، حتى شعر « القناصل » ، بوخامة العواقب التي سوف تترتب على هذا الأمر ، فأسرع الخواجه « ويصا » ، بالحضور ، وأخذ يستفسر عن الشخص المقرب الى سلطان باشا ، ليوسطه في المسألة وفي ذات يوم قابلي وقدم إلى نفسه قائلاً بالحرف الواحد : « ياخوى متنا خلاص ، ووجف حالنا ، ! فقلت له : « ياخواجه ! ماذا أفعل وأنت تعصى أوامر الحكومة .. اذهب الآن وسدد ما عليك للمديرية وجميع زملائك يفعلون عملك ، وحينئذ يكون لوساطتي معنى ، !

وفعلأ نفذ الخواجه ما أشرت به عليه ، وحضر في ذات اليوم ومعه « الأوراد » الدالة على ذلك . فدخلت على سلطان باشا وعرضت عليه الأمر بحذافيره . فإكان منه إلا أن هتف في قائلاً : « اطردهم جميعاً .. فأني لا أريد أن اراهم ، ! فقلت له : « يا باشا أنى صغير السن والمركز ، ولكنهم توسموا خيراً في حسن ظنك بي ، وصلتني بك واعتقد أنه لا يرضيك اخجالى . أو التصغير من شأنى أمامهم فضلاً عن امتثالهم لأمركم ، !

فارتاح سلطان باشا لهذا الحديث وقال : « نادهم .. من اجل خاطرك سوف اقابلهم ، : ومن طريف ما حدث انى سمعتهم وهم في طريقهم لمقابلته يقولون محدثين انفسهم : « إذا صاخبنا ، وترك لنا يده نقبلها فعنى ذلك الرضى والتساح . : أما إذا قبضها وسحبها منا . فيكون لا يزال غاضباً ، ! !
وقد صح ظهم إذ صاخبهم الباشا فرداً فرداً ، فأهروا على يده بالتقيل !

أخريات أيامه

ولما اشتدت وطأة المرض بالمرحوم سلطان باشا ، في أخريات أيامه ، أشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوروبا للاستشفاء ، وكان إذ ذاك رئيساً لمجلس شورى القوانين ، فسافر إليها يصحبه عالم كبير هو الشيخ ، وقراءة ، وخادم ومترجم ، ولما زادت حالته خطورة بعث إلى يستدعيني ، وكنت إذ ذاك في جنيف ، - ولكنه شاء أن يوافيني هو إليها ، مع أني كنت قد أعددت المدة لأن شخص إليه ، فلما رأيته على ما كان عليه من الضعف والاعتلال ، حزنت حزناً شديداً . لأنني أدركت أن منيته قد قربت ...

وكان أول ما عملته هو ان استدعيت لعيادته مشاهير الأطباء . وقد تبين أنه مريض . بالسرطان ، وأن أيام حياته معدودة - لاسيما وأن حديث الأطباء بذلك كان بالفرنسية التي يجهلها - وكان وجهي ممتعاً من هذه الحالة الخطيرة ... فلما سألتني عما قاله الأطباء عنه . قلت له وأنا اصطنع رباطة الجأش . بأنهم أفتوا بأن هواء أوروبا لا يلائمكم ، وأن طقس مصر الدافئ أصلح لحالتكم ؛ ولذلك فقد نصحوارغبة في التعجيل في شفائكم بعودتكم إلى أرض الوطن !!

وهنا ضحك رحمه الله ضحكة الساخر وقال : « وهل نخدع أنفسنا . حتى في الموت ، ؟ ثم سألتني إن كنت أصحبه في العودة إلى مصر ، فقلت له على الفور : « إن هذا سؤال لا يحتاج إلى جواب ، ! ثم قفنا في اليوم التالي بالرحيل من مدينة إلى أخرى . حسب ما كانت تقتضي حالته الصحية . إلى أن انتهى بنا المطاف إلى بلدة « جراتز » المتاخمة « ل تريستا » حيث نزلنا في فندق « الفيليت أوتيل » - وفي هذه الليلة لاحظت على سلطان باشا أنه مشرح الصدر : فمررت وقلت في نفسي ، لعل الله يخلف ظنون الأطباء .. ولكنها مع الأسف : كانت نقطة الموت ... إذ في فجر تلك الليلة لفظ هذا الرجل العظيم آخر ألفاظه وقضى نحبه : مبكياً عليه ، مذكوراً بتاريخه العظيم !

ولا يمكنني أن أعبر عما اعترااني من الحزن والكمد . إلى حد فقدت معه الوعي قليلا ولكن صحت لنفسي وتذكرت واجبي نحو فقيد الوطن ، والصديق العظيم . فدعوت الأطباء لتحنيط الجثة . توطئة لنقلها إلى مصر . ثم أبرقت بوفاته إلى سمو الحديوي توفيق ، الذي أهتم للأمر ، أذ تلقيت من المرحوم نوبار باشا رئيس النظار بأنه قد أمر بلوم باشا بأعتماد ما يلزم للقيام بالواجب نحو وطني بار . وكان بلوم آنذاك في فينا يمضي أجازته ... فحضر إلى ، وعملنا ما يلزم حتى وصلنا إلى مصر ، فسيحت البلاد فقيدها الكريم ، بمشهد رسمي ، اشترك فيه عظماء البلاد ، بما يليق بمقامه العالي ، وأعماله الجليلة ، في مواصلة أسرته !

وعما لا يزال موضع دهشتي أن فردا من أسرته لم يتقدم إلى ليستفسر مني عن تفاصيل وفاته ، كأن الأمر لم يكن بينهم ، ولكن لا بأس فقد أدبت أنا واجبي ، نحو هذا الرجل الذي كان بين عشيرته كالزهرة البانعة التي يعطر أرجحها الناس ، وكالشجرة الباسقة التي تظلل العالمين !!

هذه بعض ذكرياتي عن أعلام هذا العهد ، أردت بسردها أن أكشف عن بعض نواحي العظمة النفسية . وقوة الخلق ، والاستقامة التي كانوا يمتازون بها ، لأمهد بذلك إلى الاستطراد في إيراد إحدى الحوادث التاريخية البارزة في عهد الحديوي توفيق .

كيف أطلقت لحيتي ولماذا؟

كان ذلك يوم أن كنت اشغل وظيفة وكيل ديوان جفالك بالدائرة السنية . وكان في هذه الوظيفة سابقاً رشوان باشا — وهو رجل كبير السن — مهيب الطلعة سامق العود ، عريض المنكبين وكانت شواربه الكبيرة ،



صاحب الذاكرات بالاحية

بوجهه التركي المشرب بالخرقة . تنقى في قلوب الموظفين وأفراد الجمهور الخوف من بأسه ، والذعر من بطشه . فلما عيئت أنا مكانه في هذه الوظيفة ، كنت حدث السن . في فجر الحياة ، وريق الصبا الباكر . وكنت قبلها أشغل وظيفة « باش معاون » ، ديوان جفالك سنية قبل

فلما توليت هذه الوظيفة لا حظت — لصغر سني — أن الموظفين الذين تحت إدارتي ينظرون إلى نظرة استخفاف ذلك لأن الفارق كان كبيراً بين شاب في مستهل الحياة مثلي ورجل تركي له شوارب طويلة . وقامة فارعة . كأنما الكفاءات كانت تقاس في ذلك العهد الغابر بالطول والعرض وبالكُم لا بالكيف . . . وهذا اضطرت تحت ضغط هذه الظروف إلى أن أطلق لحيتي . على مثال ما كان النبلاء الفرنسيون يفعلون في لحاهم . لعل ذلك يوحى إلى الموظفين وغيرهم بالهيبة التي تقتضيها الوظيفة الكبيرة التي أشغلها ولكن ذلك لم يكن ليجدى نفعاً أو يكون له الأثر المطلوب . إذ شعرت أن الموظفين ما يرحوا سادرين فيما هم فيه من الاحساس بالفرق بين حداتي وصغر سني وبين ما كان عليه سلفي من التقدم في العمر !!

وفي ذات يوم حدث أن خالف أحد هؤلاء الموظفين تعليمات كنت قد أصدرتها بشأن أمر من الأمور فما كان مني إلا أن امرت باستدعائه أمامي وبعد أن اشبعته تأنيباً وتديباً لاحظت أن التوبيخ لم يكن له التأثير المطلوب فأمرت برفته وفصله من وظيفته فسارت بعد هذا الحادث الأمور على خير ما يرام وشاعت في قلوب الموظفين الرهبة التي كنت أبتغيها فلما تحقق ذلك حلقت لحيتي وعدت كما كنت فيما سلف من الزمن لأن الباعث الذي حدا بي إلى إطلاق اللحية قد انعدم وزال فأزات بزوال هذه الدوافع لحيتي !!

بيني وبين الخديوى توفيق

وبعد ذلك بفترة من الوقت استدعاني سمو الخديوى توفيق فلما تشرفت بالمثل بين يديه أبتدري بقوله : — ما هذه المفارقات يا قلبي بك . هل نحن في فرنسا : تطلق لحيتك على هذه الصورة : ثم تعود فتحلقها . ؟؟ حدثني عن حقيقة الأمر ، فأني أود معرفته . فأجبت سموه . . . — الحقيقة يا مولاي . أنني كنت أشكو التهاباً جلدياً : تسبب عنه ظهور « الحرارة » ، في ذقني — فما كان مني إلا أن أطلقت لحيتي لأخفيها — أي أخفي « الحرارة » ، عن العيون . . . ! فضحك سموه قائلاً . . .

— ولكني لا أرى لهذه « الحرارة » ، أثراً في وجهك . . . وأنا أعتقد أن هذا ليس بيت القصيد . . . فقل الحقيقة ورزقك على الله . . . !

فابتسمت لسموه ، وسردت عليه القصة بما تنطوى عليه من الوقائع وبما فيها من رفت الموظف وما كان له من أثر في دائرة الاعمال ..

فاستغرق سموه في الضحك ، وشاع على وجهه الكريم مرور فياض ، وأخذ يتحدث الى قائملا :
— والله ياقلبي بك أن السبب الذي دفعني إلى اطلاق لحيتي انا ايضاً ، يشبه السبب الذي من اجله اطلقت انت لحيتك كذلك . فقد كنت حين تقلدت عرش الخديوية المصرية حديث السن ، في فجر الصبا ، وكان والذي الخديوى اسماعيل رجلاً عظيم الهيئة ، موفور القوة ، مهيب الطلعة بلحيته السكتة . وشخصيته المرهوبة ، فاضطرت من اليوم الذي تقلدت فيه مقاليد الأمور ، ان اطلق لحيتي حتى ترانى الجماهير بنفس العين التى الفت بها رؤية الخديوى اسماعيل ، والفارق بينى وبينك انك مطلق الحرية فى اطلاقها أو إزالتها كما تشاء ووقت ما تشاء ، اما انا فلا استطيع ، فهناك تقاليد لا استطيع منها فككا ، ولهذا فاقى مضطر على الإبقاء على لحيتى العزيزة !!
هذه بعض نوادر ذاك الزمان !!

الخلاصة

وجملة القول ان الخديوى توفيق له مآثر عظيمة لا يجب إغفالها ، وفي مقدمتها مآثره على حلوان التى يقال بحق انها من صنع يديه ، لانه وان كان الذى وضع أساسها هو المرحوم الخديوى اسماعيل ، حيث أقام بها الحمامات المعدنية التى لها من المزايا ما لا ينكر — والدهر لم يمهل لتمامها ، فار الخديوى توفيق عمل تخليداً لذكرى أبيه ، وحبا فى العمران ، وخدمة للإنسانية بجد واجتهاد على توسيع حلوان ، التى كانت فى عهد أبيه لا يوجد بها إلا الحمامات وفندق واحد ، وربما عدد من المنازل يتاهز الخمسين فجعلها مدينة عامرة ، أصبح بها الآن ما يزيد على ستة آلاف منزل — وخط فيها الشوارع العظيمة ، وغرس بها المنتزهات وأوجد بها المياه والنور — فالفضل كل الفضل راجع اليه فى إنشاء هذه المدينة العظيمة وعمرانها ، لانها قائمة بخدمة الإنسانية خدمة لا تقدر ، حيث يقصدها كثير من سكان ممالك أوروبا فى فصل الشتاء للاستحمام بمياهها المعدنية الشافية رحمه الله ، رحمة واسعة ..!

